مجموعة
قصصية

الهجرة

حمدان ، أحمد .
الهجرة : مجموعة قصصية / أحمد حمدان
. ــ ط1. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2011.
104 ص ؛ 21 سم
تدمك : 1 - 629 - 427 - 977 - 978
1 ــ القصص العربية القصيرة
أ ــ العنوان . 811.01
رقم الإيداع : 17831 / 2011

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : صفر 1432 هـ ـ يناير 2011 م

مجموعة
قصصية

أحمد حمدان

الدار المصرية اللبنانية

الهجرة

الهجـــرة

وَإِنِّـي لَتَعْـــروني لِذِكْـراكِ هـــزةٌ
كَمَا انتَفضَ العُصْفـورُ بلَّله القـطرُ
هَجرتكِ حَتَّى قيلَ لا يَعرِفُ الهَوَى
وزُرتكِ حتَّـــى قِيـلَ لَيسَ لهُ صـبرُ
عَجِبتُ لسعيِ الدَّهـــرِ بيني وبينَهـا
فلمَّا انقَضَى ما بينَنا .. سَكنَ الدهرُ

أبو صخر الهذلي

قضي الأمر الذي فيه تستفتيان! ..

اليوم أول رمضان .. والمدير غائب .. وأمي اتصلت تقول : وحشتنا يا ولد .. وموظف شباك التذاكر الذي يلعب مع خالي الطاولة ويغلبه .. اليوم ورديته .. وملابسي ثقيلة ومريحة وغامقة .. مثالية لسفر شتوي نهاري .. توكلنا على الله الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل والمال والولد .

* * *

كثيرة هي القطارات المسافرة إلى الصعيد ، لكن هذا القطار بالذات ، قطار الثانية ظهرًا ، شهرته كنجوم السينما وجمهوره بالآلاف ، فهو في موعد وسط .. ليس في أول النهار ولا آخره .. إذا كنت مداومًا على عمل لا إجازات فيه .. فإنك مطمئن إلى أنه لن يفوتك إذا غادرت مكتبك عند أذان الظهر ، وهذا تزويغ سهل ، أما إن كنت ممن لا يستيقظون قبل العاشرة ، فأنت غير محتاج لضبط المنبه – ومن منا لا يبغض دقته ؟ – لأنك ستصحو قبل موعده بأربع ساعات كاملة .. وفي هذا الكفاية ، وهو أيضًا – وهذه نقطة جوهرية جدًّا – سبق أن احترق مرتين ، وانقلب ثلاث مرات ، فاستوفى نصيبه من الكوارث كاملًا غير منقوص ، وأصبحت الوزارة تراقبه وتتابع خطواته كما يفعل أب أرمل يائس ، مع ابن مدمن عاق .. تدعه يتأخر ويتلكَّأ ويتدلع كيفما شاء ، لكنها أبدًا لا تسمح له بأن تأكله النار ، أو أن يصدمه قطار آخر .. بعد أن أصبحت الصحافة واقفة له بالمرصاد وكادت – لولا الملامة – تعيِّن

له مراسلين دائمين يأتونها كل يوم برسالة إخبارية مفصلة عن مستجداته اليومية ، كمراسلي المهرجانات السينمائية ، والدورات الأوليمبية ، وثكنات المتمردين .

وهو – القطار – متعدد الدرجات من الثالثة العادية إلى الأولى المكيفة .. وربما كان الوحيد من بين القطارات الذي يجمع هذه الدرجات ، وما أروع أن تكون في قطار واحد يجمع كل الدرجات .. فُرجة ببلاش .. ودراسة ميدانية تنصح بها كتب مناهج البحث .. على عينك يا تاجر ..

دعك من العربات الفاخرة .. ابن البلد لا يستريح هناك .. ذات الوجوه البلاستيك ، والأصداف المحكمة الغلق ، والتأفف من كل شيء .. إذا مرّ صرصار عند ذيول المعاطف المعلقة على الخطاطيف الفضية المثبتة أعلى النوافذ – وهذا مألوف جدًّا – سمعت صرخات لا تجد مثلها إلا عند الولادة .. أو قبل الولادة بتسعة أشهر بالتمام ..

لا أحد هنا يميل على جاره لينكشه ويسرسب معه حوارًا ينتهي باكتشاف أنهم بلديات أو – أحيانًا – أقارب كما يصدف كثيرًا أن يحدث في باقي الدرجات ، بل يعتصم كلٌّ بمقعده كأن أحدًا سيأتي لا محالة ليخطفه منه ، ولا يني يزمجر كل دقيقة ساخطًا على التكييف الذي يكون – لا بد – باردًا أكثر مما يجب ، أو ساخنًا أكثر مما ينبغي .

وفِّر جهدك واقصد رأسًا إلى الدرجة الثانية .. عند قلب القطار تجد واسطة العقد .. الحشوة المتينة .. تجدهم في بلوفرات سَكَبَتْها الأوكازيونات بنصف الثمن في آخر الموسم ، ليس نادرًا إذن أن تجد مقاساتها عليهم تزيد أو تنقص نمرة أو نمرتين .. وما المشكلة ؟ أليست الموضة تتبدل كل سنة من

الواسع المَبْهَوَق إلى الأزعر إلى المزعطط ؟ .. لِنَقُل - بثقة - إنها موضة العام القادم .

يحمل الواحد هنا في يمناه كرتونة .. ويعلق على كتفه حقيبته الثقيلة ، يدلك على وزنها أنه يبدِّلها من كتف لآخر كلما تقدم في خَطْوِه الوئيد الذي يكاد يعرقله الزحام ، وفي يسراه يمسك بحرص حنون كيسًا به "حاجة حلوة" يدخل بها على " الجماعة " ، حاجة حلوة من محلات " مصر " ، لا يوجد مثلها في محلات ديرمواس والبداري وأخميم ، بل إن بقالي هذه المحلات لا يعرفون أسماءها ، ويشككون في إمكان وجودها ، وهم على أتم استعداد لأن يمطروا أول زبون يسأل عنها بقذائف من شتائم طازجة تذكِّر الزبون بجده الحافي ، وجدته التي عاشت وعمّرت .. وليس لها من حياتها إلا الجوع والعطش ، لا بد إذن أن يقصر الشر ويشتريها من مصر ، ولا بد أيضًا أن يلفَّها في كيس أسود حتى لا " ينظرها " الجيران .

تريد زبدة الزبد ؟ .. سدّ أنفك والبس ثوبًا غامقًا ، ثم احشر نفسك في الدرجة الثالثة ، آخر العنقود ، تاج القطار ودرَّة جبينه ، لولاهم لكانت السكة الحديد .. جنة .. لكن بلا ناس ..

نعم يُبهظون القطار بأحمالهم التي لا تنتهي من الكراتين والأشولة - فلا حقائب هنا - ونعم يبهدلون هواءه بعبق لا تجده في أي مكان في الدنيا إلا هناك .. خليط فذ من التراب والعرق والبيض المسلوق ودخان السجائر الرخيصة ، لكن القطار رغم هذا كله يحتفي بهم، كأن أمه - بلَّ الله تربتها - أوصته بهم وهي في النزع الأخير، أو كأنهم " ماسكين عليه زلَّة " ولا يتوانون لحظة واحدة عن التلويح له بها ، لهذا تتسع لهم عرباته حتى تكتظ

المقاعد والأرضيات والأرفف والأسقف بالمسافرين وأمتعتهم .. وهو – مشكورًا – يتيح لهم قبل شخوصه من المحطة في دقائق الانتظار الطويلة .. يتيح لهم سوقًا رائجة لكماليات زهيدة الثمن جدًّا ، كماليات لن يحتاجها أحد منهم أبدًا .. ينادي عليها باعتها بأصوات متنافسة على بلوغ مسامع الركاب المتكدسين في كل شبر بجوانب العربات .. أصوات لا تحرص على ضرورات الفن والتنغيم ، لكنها لمن يريد أن يضحك من كل قلبه .. أجدع من ألف نكتة ، فأكثر بضائعهم أسماؤها إفرنجية .. قواعد نطقها في الوقف والوصل والحركة والسكون غير مألوفة لأفواههم .. فتراهم حينًا ينطقونها مشوهة ، وحينًا يعَرِّبونها بمسميات مبتكرة آية في الظرف، تكون دائمًا أبلغ في الدلالة على وظيفة السلعة من اسمها الإفرنجي الأصيل ..

هنا تجد الفئران تتحرك آمنة مطمئنة .. كأنها في دار أبي سفيان .. تقرض هنا ، وتخربش هناك ، وتتناكح هنالك .. البيت بيتها ، أما المسافرون فضيوف، عمرهم في القطار ساعات معدودة ثم يغادرون ويأتي غيرهم ، فهل تقضي الأصول بأن يطارد الضيف المضيف ؟ أم نفعل كنسوان العربات المكيفة فنصرخ إذا مر حتّة صرصار ؟

* * *

رمضان كريم .. آخر كرم ..

ليس صدفة أن يغيب المدير في أول أيام رمضان ، فهو مثلي لا يمسكه في القاهرة إلا أكل العيش ، أما شراييه فهناك .. في تلك البلاد التي تنام مبكرًا .. ولا تعرف الكباري ولا الأنفاق ، السايس في قاموسها هو من يعتني بالحصان لا السيارة ، والجار في دينها مصطلح مطاط فضفاض لا ينافسه في

القابلية للامتداد إلا قولك : قريبي أو بلدياتي .. أما المشوار الذي يستغرق نصف ساعة ، فهو سفر يسبقه دعاء ووداع ، و« إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد» .. ليس صدفة إذن أن يفرَّ المدير إلى هناك ليتنسم عطر الإفطار مع ناس يحبونه لأنه قريبهم .. ليس إلا .. أو جارهم ليس إلا .. أو حتى بلدياتهم .. ليس إلا .

يفرّ إلى هناك ليأكل ياميشًا فريدًا .. قدمته أيادٍ .. سعيدة .. تحبه ..

يفرّ ليسمع فرقعة مدفع إفطار بلدهم الذي يختلف دويّه - أي والله يختلف - عن دوي أي مدفع آخر.. دَوِيّ كان صوته أحلى عندي من صوت جرس الفسحة .

* * *

أرض الصعيد ! أرض الشتاء الزمهرير والصيف القائظ ، أرض الطبيعة الصلدة والقلوب اللينة .. أرضي وبلادي وملاذي وحضني، يرقص قلبي إذا قرأت اسمها في قصة أو رواية أو كتاب تاريخ ، أحب - لأجل خاطر عيونها - الفول السوداني والقصب والكركديه .. أحتمل - إكرامًا لها - حر الشمس ، وقسوة الجبل دون أن أشكو .. وأستلطف - بشكل تلقائي يثير دهشتي أنا نفسي - كل شيء أسمر ، فأشرب القرفة منتشيًا لأن في لونها وجوه أهل بلادي ، ولا أرضى بالسكنى إلا قرب النيل .. لأن ماءه الأسمر لامس أرض بلادي .

قيل لأعرابي : كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار وانتعل كل شيء ظله؟ فقال : وهل العيش إلا ذاك ؟ .. يمشي أحدنا ميلًا .. فيتصبب عرقًا

كأنه اللؤلؤ .. ثم ينصب عصاه ، ويلقي عليها كِساه ، وتقبل الريح من كل جانب ، فكأنه في إيوان كسرى !

أغراني حديث الأعرابي ، فحجزت لي في ذلك القطار – بواسطة غريم خالي – تذكرةً ، لأنال بهجة الإفطار في اليوم الأول في بلدنا .. في بيتنا .. وعلى مائدتنا .. مع أمي وأهلي وجيرتي .. فهل أتيت عظيمًا ؟ .. وهل بذلك عار ؟

* * *

هنا محطة الجيزة .. ضيقةٌ دومًا بالمسافرين .. لا يكاد رصيفها يتسع لشطر المسافرين في الأيام العادية فما بالك بأيام المواسم ؟

الجو بارد شتوي .. لكن أنفاس الصائمين المحشورين على الرصيف في أول أيام رمضان بعثت في الأثير شيئًا من الدفء ساعدته شمس يناير الضعيفة على جعل البرد في الحدود المقبولة .

أعلن مذيع المحطة أن «القطار على وصول الرصيف» ، فتقاطر الناس إلى حافة الرصيف ، ولم تمض دقائق .. حتى حمل الريح صفير القطار .. صفيرًا – مع أن المشوار لم يكد يبدأ – بدا منهكًا يعاني .

لم تكن عجلات القطار قد توقفت عن الدوران حتى تدافع الناس إلى الأبواب المواربة يلقون بأمتعتهم إليها وإلى النوافذ المفتوحة في عربات الدرجة الثانية والثالثة العادية ، يحجزون بها أماكن في مقاعد بلا أرقام ، الأولوية في الجلوس عليها للأشطر في المزاحمة .

تزاحم كثيف ، وتصايح يحمل عبارات وداع وسلامات ووصايا وعراك على مقعد شاغر أو مساحة معقولة في رف عريض تكفي لرص حمولاتهم

التي لا تصلح لها إلا قطارات البضائع ، أو تكفي لتتكوَّم عليها أجسادهم إن عزَّت المقاعد واكتظت الأرضيَّات .

خَفُتَ التصايح رويدًا رويدًا .. وأطلق القطار صفارة ثانية .. إيذانًا بالإقلاع .. ثم بوقار ، لا يملك له مبررًا واحدًا إلا شعبيته المشبوهة تلك ، تحرك هادئًا ساكنًا ..

كيلو مترات معدودة مشاها القطار في أكثر من نصف ساعة ، مشى عليلًا يَزْحَر وكأنه لا يريد أن يواصل .. ثم شرع يزحف بتؤدة مريضة كدودة حبلى - هل تحبل الديدان وتنتفخ كبني آدم ؟ - ثم على نقطة غير مميزة بأي معالم ترشد من قد يتوه .. في الطريق المحشور بين الترعة وزراعات القصب والفول والبرسيم .. وبالضبط عند انطلاق المؤذنين بالتكبيرة الأولى لأذان العصر .. توقف تمامًا ..

وقف القطار وصمت محركه .. وانطلقت أفواج التساؤلات .. هل تعطل؟ هل ينتظر ليفسح الطريق لقطار آخر يسبقه ثم يعاود السير ؟ هل نفد الوقود ؟ ..

* * *

الشائعات عندنا لها مذاق الشهد .. نحترف صناعتها ونتقنها على نحو يثير حسد أعتى كُتَّاب الفضائح ، نبحث عنها بشغف وتشوُّق .. وما إن نظفر بواحدة حتى نتفنن في تأويلها وتحريفها ونشرها على غير وجهها الذي أطلَّت به علينا .. حتى تغادرنا في ثوب جديد أمعن كذبًا من سابقه .. وهكذا في سلسلة لا تنتهي من الغزل والنسج ، وهذا سر بريقها ، إنها " حصالة " لخيالاتنا .. وأي فتنة آثر من فتنة الخيال ؟

قال ركاب الدرجة الأولى إن القطار " يخزِّن " لقطار النوم الذي يليه .

وصرح أصحاب الدرجة الثانية بأن الوقوف عارض وليس له سبب محدد ، فهو دائمًا يركن ويستعبط ، ثم بعد دقائق ، ومن دون سبب أيضًا ، يتحرك ، قطر مايع ابن .....

أما حبايبنا ، جمهور العربات الأخيرة ، فأكدوا بيقين - يستحيل معرفة مصدره - أن السواق لابد ذهب ليفعل مثل الناس ، وأنه - شفانا وشفاكم الله - تعذبه البواسير التي لا ترحم ؛ لذا يتأخر في هذا الشيء ولا يملك له دفعًا ولا ردًّا .

ظل تزاحم التكهنات مسيطرًا على الموقف حتى زل لسان أحد الكمسارية - بعد أن ضج بسيل الأسئلة والشكاوى - وصرَّح بكل بساطة .. بأن أمامنا على بعد عشرة كيلو .. قطار مقلوب .. حادث عادي .. ونحن بانتظار أن تأتي أوناش المصلحة لترفع العربات الخارجة عن القضبان ..

- أنا كنت باقول كده برضه ..
- ياه .. الحوادث كترت الأيام دي ..
- معقول ؟ !
- تاني ! ..

خرج صوت من بين الركاب متسائلًا في خبث :

- والكلام ده حصل الساعة كام ؟

في غير تروّ أجاب الكمساري :

- من حوالي ساعتين كده .

هنا ضجّ الجميع :

- كنتوا عارفين قبل ما يتحرك القطر ! كنا يعني هناكلكم إذا قلتولنا ؟ على الأقل كنا نقدر ناخُد مواصلة تانية ! أوتوبيس .. ميكروباص .. بَلا أزرق .. بس نبقى عارفين ..

- إجرام والله !

- و في الصيام ؟!

صرخ الكمساري وقد طفح كيله :

- المحطة مليانة أجانب ، عشان قطر النوم اللي بعدنا ، ودول ناس خواجات نُضاف مايستحملوش مناظركم وريحتكم اللي تقرف .. وكمان تعليمات الأمن .. ممنوع الزحمة وقت أفواج الأجانب ..

- قلة أدب !

- وحضرتك بقى من النرويج ؟

- جاتك نيلة !

- ريحتنا قال ومناظرنا ..

طبعًا هذه أجزاء الحوار التي يمكن كتابتها على ورق مطبوع متداول ، أما الباقي .. فأنا - بصراحة - لم أجد سنين عمري في البخت ، ولم أربحها في اليانصيب ، حتى أبدِّدَها في السجون .

من بين الأصوات الغاضبة من السباب الوقح المتبادل تساءل رجل نجح صوته في الوصول إلى الكمساري رغم الهيصة المحيطة :

- المهم يا عم .. قدامنا وقت طويل ؟

- يمكن ساعة .. يمكن خمسة .. الله ورسوله أعلم .
- يا ساتر يا رب !

* * *

الغاية .. إدراك الإفطار في البيت .. بأي ثمن .. والخيار الآن عسير ..

إذا كان الانتظار في ظرف كهذا هو ثقة بمواعيد عرقوب ، فإن تغيير الراحلة مشقة .. بل مكابدة .. وغَرَر .. بل مقامرة .. ومع ذلك فإن هذا الخيار لم يكن متاحًا للجميع ..

ابتداءً .. علينا أن نستبعد كليًّا ركاب الدرجة الأولى .. رغم أنهم كانوا الأكثر تذمرًا ونظرًا شزرًا إلى ساعاتهم التي بالعند فيهم بدأت تتحرك ببلادة، كاشفة عن قلة أصل لا تناسب إطلاقًا مال قارون الذي دفعوه فيها .. لكنهم .. بصراحة .. لم يفعلوا أكثر من إبداء التضجر بقدر محسوب لم يخرج عن حدود الأدب المتعارف عليها بين أولاد الناس ، ثم تحذير الكمسارية بلهجة شديدة الحسم من ترك الأمور سداح مداح كما يحدث عادة في مثل هذه الظروف، فيتدفق ركاب الدرجتين الثانية والثالثة إليهم ، يبرطعون جيئةً وذهابًا بين المقاعد ، يبحلقون في الوجوه بعيون بجحة لا ترمش ، كعيون السمك ، وفي وجوههم سعادة غير مفهومة بالمرة ، كأنهم يتفسحون على شاطئ المنتزه ، ويفسدون العربة .. يفسدونها تمامًا .

أما أهل أقاصي الصعيد فلن يجديهم ترك القطار شيئًا ؛ إذ هم في الحالتين لا أمل لهم في الإفطار في بيوتهم .. وهم قد وطّنوا أنفسهم على هذا منذ ركبوا القطار ، فجهزوا صواني الفريك ، وحلل القلقاس ، وطواجن المسقعة ، رتبوا أنفسهم تمامًا بحيث كان في كل عربة أعداد إضافية من أكواب وملاعق

وأطباق ألومنيوم، وقبل كل هذا .. مشروع بوتاجاز .. أنبوبة جَنِينِيَّة زرقاء، في موضع الرأس منها تبرز شعلة مجنونة تزفُر متحفِّزة لتسخين طعام كل المسافرين ، صدقة جارية .. أجرها في الصيام .. دُوبْل .

أصحاب الحمولات الثقيلة .. لا خيار لهم أيضًا ؛ لأن عناء نقلها إلى الطريق الزراعي ثم البحث عن سيارة بها موضع لهم ولها أمرٌ أسهل منه بكثير جلب مليون ناقة حمراء من زرائب الملك النعمان .

الأمل في الوصول قبل أذان المغرب كان قاصرًا إذن على أبناء المدن القريبة .. وأصحاب المتاع الخفيف .. وهؤلاء هم بالفعل من غادروا القطار .

* * *

كنت ضمن المغادرين ، فبلدي قريب .. ساعتان وينتهي الأمر ، والحمولة .. صفر .. فقرار السفر – كما تعلمون – جاء فجأة .

وكان علينا لنصبح على الطريق الزراعي أن نعبر ترعة الإبراهيمية وخيارات العبور محصورة : جسر أو معدّيّة ..

أول جسر يبعد بنحو خمسة كيلو مترات .. قَطْعُها في الصيام .. وعلى الفلنكات .. عمل ماراثوني مجنون ، أما أول معدية فكانت على مرمى بصرنا، لا تبعد عنا بأكثر من خمسمائة متر .

نصف كيلو مسافة تافهة ، لكنها على شريط سكة حديد ملوث بفضلات مراحيض القطارات ، وتسربات جراراتها من زيوت أشد سوادًا من الكحل، ومحفوف بخطر زواحف الأحراش المجاورة ، ناهيك عن ضمان بلى نعال الأحذية لطول وطئها لحجارة البازلت السوداء المنضَّدة في فوضى منظمة على

طول الشريط بين القضبان تثبيتًا للفلنكات ، عندئذٍ يصبح قطع هذه الأمتار المعدودة ورطة حقيقية .

تحركنا في أفواج متراوحة بين أربعة وسبعة ، متآلفة اضطرارًا في جو ليس غريبًا على مفوضية اللاجئين ، وتراث الغجر ، وعمال التراحيل .. جوّ التهجير الجماعي ، والنزوح الجبري ، ومخيمات الإغاثة .

سرنا حتى بلغنا المعدية التي لا تَسَع إلا ستة أفراد ليس فيهم من يشكو السمنة ، وعددنا يُـحْسَبُ بالمئات ، لا بد من تنظيم العبور .

لم نعدم متطوعين ممن تؤكد الأبراج أن نزعة حب القيادة والعمل العام هي فيهم جبلَّة طبيعية .. خلقة ربنا .. كالطول والقصر ولون العينين والشعر، لكن أين لهم بالسمع والطاعة ؟ .. هذا جمهور من كل لون ، هنا جدل بديع وتناطح آسر بين الإيثار والأثرة ، التلكؤ والمغامرة ، الدماثة والصفاقة ، سعة الصدر وضيق الأفق ، العفة الـحَيِيَّة والاقتحام المتحرش .. هنا فقط يدرك المرء كم هو حيوي وخطير وجود عسكري المرور ، والإشارات الضوئية ، وغرامات التخطي .

تحمل ذاكرة طفولتي أحلامًا كثيرة أتوه فيها عن أبي وأمي ، أو توشك أن تصدمني سيارة يقودها مجنون ، أو يهاجمني كلب صوته يخلع القلب .. ثم لا أدري كيف أخرج من الورطة كالشعرة من العجين ، ينتهي الكابوس كأفلام السينما الرديئة .. يأتي البوليس في " الوقت المناسب " ، ويبعث البطل حيًّا من بين القبور ليقبِّل حبيبته أمام كوشة حافلة بالدانتيلا والتُلّ والترتر .. لا يهمك الآن ماذا يقول فرويد عن حلم كهذا.. وقانا الله وإياكم الفضائح.. المهم هنا أن أزمة عبور الإبراهيمية انتهت على النحو الذي كانت تنتهي به

تلك الأحلام ، كحقنة يعطيها تمرجي " مِعَلِّم " لطفل مذعور أشاح بوجهه عن الإبرة المشرعة تأهبًا لطعنِه ..

رغم الدوشة والهرجلة سمعنا في أحد الأفواج مَن ينشد في صوت باريتون عذب :

اشْتَدِّي أَزمتِي تَنفَرِجي : قدْ آذنَ لَيْلُك بالبَلَجِ

وظَلامُ اللَّيلِ لهُ سُرُجٌ : حتَّى يَغشَاهُ أبو السُّرُجِ

أجبرتني الشراشيب الخضراء المدلاة من عمامة ذلك المنشد عَلَى السَّرَحَان، فلم أستطع طرد هذا السؤال عن رأسي : أيمكن أن يكون إنشاد ذلك الدرويش هو التعويذة التي أنهت حلم العبور على هذا النحو ؟ أم أن عشقي لحكايات الأولياء والكرامات والفتّة قد أفسد عقلي على نحو لا سبيل إلى إصلاحه ؟

لكن .. هل هذا وقت أسئلة ؟

المهم أن مجموعتنا اجتازت الترعة .. وها هو الطريق الزراعي ينتصب أمامنا بسياراته التي تتسابق حرصًا على الوصول قبل الغروب .

* * *

الفوج الذى ضمّني مؤلف من أربعة رجال .. كانوا في آخر عربات القطار .. في يد كل منهم سنارة ، وجَرَبَنْدِيَّة : حقيبة من القماش الكاكي المُموَّه .. كانت أفرولًا عسكريًّا أدى دوره القومي بإخلاص ثم خضع باستسلام كلي لعملية إعادة تدوير متقنة .. ليس بالمرء أدنى حاجة إلى أي قدر من الذكاء ليدرك أنهم صيادون .. ولكن لماذا سافروا بأدواتهم ؟ .. أليس في القاهرة

نيل في كل مكان جعل من عبارة " شارع الكورنيش " نكتة سخيفة لا تصف بها عنوانًا لأحد إلا إذا كنت راغبًا في أن يتوه كعمدة صلاح چاهين ؟ أليس نصف القاهرة كورنيشًا ؟! ونيلها .. أليست أذرعه ممتدة ملتفة كالأخطبوط على نحـو يتيح لساكنيها أن يتيهوا كفرعون بهذه الأنهـار التي تجـري من تحتهم؟

كانوا صحبة واحدة ، وكنت بينهم غريبًا ، وكان عليَّ - لأحصل على إجابة - أن أبدأ حوارًا ، وصاحبكم في باب المبادرات الاجتماعية .. غشيم لا يساوي بصلة .. لكن رجلًا منهم كفاني عبء ابتداء الحديث .. كان من الذكاء بحيث أدرك إحساسي بالوحدة بينهم ، كان مصريًّا حقيقيًّا .. وُلِدَ متمتعًا بهذه الحاسة المصرية الفريدة .. الإدراك اللحظي لمشاعر الآخرين .. ثم إبداء أوفى مظاهر التعاطف والمشاركة ، دون ذرة منّ أو تذكير بالغربة أو العجز .. ثراء منقطع النظير في الحياة الوجدانية .

أدرك الرجل - خطفًا - إحساسي بأني غريب بينهم .. وحائر في تفسير سبب سفرهم بسناراتهم .. وخطفًا أيضا بدأ الرجل .. الحاج بسيوني .. يدمجني في المجموعة .

إنهم أبناء حارة واحدة في مصر القديمة .. صَنْعتهم تطريز سجاد الحوائط الذي تبيعه بازارات الحسين، ويخطفه الخواجات بلهفة المراهقين .. نعم صاحب البازار الذي يرسلون إليه إنتاجهم حرامي .. لكن .. وبعدين ؟ .. غيره حرامي أكتر منه.. على الأقل ده عارفنا وعارفينه ..

لحظة ! كيف فاتني أن أخمن أنهم من أهل الحرف الدقيقة ؟ .. كان هذا واضحًا منذ البداية ، إن في ظهورهم انحناءة كفيلة بجعلهم في القريب

العاجل مقوَّسين كالسلاحف ، وفي أعينهم إنهاك لا يفسره الصيام وحده ، ثم هذه الثياب التي يرتدونها .. رخيصة ؟ .. نعم .. نصف عمر ؟ .. طبعًا .. لكن فيها ذوق قوم تربطهم بالفن قرابة .. باختصار .. ثياب تستريح العين إذا وقعت عليها .. ثياب كملابس المصوّراتية المحترفين ، ليس فيها نغمة نشاز واحدة .

قال بسيوني الذي يبدو أن صاحبيه قد فوضاه كشعراء المعلقات في قيادة الركب ، والحديث باسمهما ، والاستجابة للحشريين من فصيلتي .. قال إنهم صحبة جمعهم عشق الصيد .. يخرجون في الجُمع والأعياد يحمل كل منهم سنارته .. ثم يوزعون مسئولية جلب باقي لوازم الصيد عليهم .. من كل حسب هواه .. لكل حسب مزاجه .. على كيفك .. والجميل هنا أن هذه اللوازم منبتة الصلة بأدوات الصيد كما يعرفها الهواة والمحترفون على السواء، إن من ألزم هذه اللوازم مثلًا .. جوزة .. صنعها ابن بسيوني .. يدويًّا .. من غاب الأحراش النابتة على شاطئ الترعة المواجهة لبوابة المعهد الفني الصناعي الذي يدرس به ، ثبتها ببرطمان عسل أسود أهداه لهم جدهم حين زارهم في إجازة المولد النبوي .

من اللوازم الجوهرية أيضًا ، راديو متوسط الحجم يعمل بأربع بطاريات حجم كبير ومع ذلك صوته غير واضح ويحشرج كأنه حاجب في محكمة ، أو تبَّاع في موقف أوتوبيس ، أو حشاش عريق لا يردعه عن الكيف رادع ، وطبعًا ليس بوسعنا إغفال المعسل والبرَّاد والأكواب والشاي الفرط والسكر الملفوف في قرطاس عليه تدريب محلول على الدرس الأول في الوحدة الثانية من كتاب اللغة العربية للصف الثالث الابتدائي ، ومن حسن حظك أن التدريب محلول، وإلا فهيهات أن تعرف الحل وإن كنت عضوًا بالمجمع اللغوي .

أضاف الرجل أنهم ركبوا القطار من القاهرة ليصلوا إلى أحد البلاد القريبة من الجيزة .. بلدة صغيرة اسمها الرّقّة .

الحمد لله .. جاء ميكروباص محترم ذاهب إلى الرقة .. هذه محطة وصوله، إنه لن يواصل السير إلى المنيا أو حتى إلى بني سويف .. أمري لله .. ركبوا وركبت معهم علِّي أجد في الرقة هذه مواصلة أخرى توصلني إلى بلدنا .

* * *

الرَّقَّة بفتح وتشديد الراء والقاف هي – كما تقول المعاجم – كل أرض إلى جنب واد ينبسط الماء عليها أيام المد ثم ينحسر عنها فتكون نافعة للنبات ..

رغم أن أكثر أسماء مدن وقرى الصعيد تحمل أصولًا فرعونية صريحة فإن الرقة هذه تسمية عربية صرفة بدون فصال ؛ إذ فهمت من عم بسيوني الذي كان قد جاورني في الميكروباص مواصلًا استخدام التفويض الممنوح من رفيقيه ، اللذين لم يكفا لحظة واحدة طوال الطريق عن سب ملّة القطارات ومن بدعها .. طبعًا لم يخطر ببالهم ، ولو لجزء من الثانية ، أن هذا السبَّ يمكنه أن يُودي بصيامهم ، فهذه القطارات بالنسبة إليهم صنعة ملاحدة .. كفرة .. أولاد حرام .. ليس في سبهم من بأس ..

أقول فهمت منه أن الرقة هذه ، تمامًا كما تقول المعاجم .. بلد شديد خصب الأرض شديد ثراء النبات وأنه – وهذا هو ما يهم الصيادين – حَسَنُ الماء .. وحُسن الماء هنا ليس حسنًا شاعريًّا بنقائه أو سرعة جريانه أو تدفق الموج على سطحه.. بل هو تقريبًا على النقيض مما تقتضيه روعة المظهر .. أي نعم .. على النقيض على طول الخط .

إن الماء يكون – في دستور الصيادين – مباركًا إذا كان كسولًا .. مُقِلًّا في حركته كأنه عجوز سبعينية بدينة التهمها النقرس والتهاب المفاصل ، إن تيار الماء السريع يجرف سناراتهم بقوّة تضارع جذب السمك لها فيلتبس الأمر عليهم إذ يعجزون عن التمييز بين الاندفاع المألوف للتيار وبين تخاطف الأسماك للطُّعم .. فهم لا يستخدمون الأجراس الفضية التي تجلجل ولا العوامات الفوسفورية التي تبرق متراقصة في ظلام الماء إذا ما غمز الشص مستجيبا لنهش سمكة مفجوعة ، وتبقى خرساء شلّاء مهما اشتد التيار فلا ينخدع الصياد ، باختصار هذه الأجراس والعوامات ناضورجية لا يحدثون هرجًا إلا عند الضرورة .. عندما يكبس السمك فعلًا .. لكن أين متعة الصيد إذا كنت لا تتحرك إلا كالآلة .. مستجيبًا لرنين أو وميض ؟ أين المناورة ، وطول البال، واللعب بالأعصاب ؟ .. الشطارة أن تترك الخيط حرًّا في ماءٍ ساكن وتُبْقِي يدَك في تربُّص متحفز ، حساسةً لكل حركة ، تتوجس خيرًا ، وتقيس أدنى اهتزاز ، كمقياس ريختر ، وعند الغمز الحقيقي .. عندئذٍ فقط ، تبطش البطشة الكبرى وتسحب المسكينة إلى رحاب عشماوي .

الخلاصة .. الماء الهادئ أفضل .

قد تقول – والحق معك – إن نيل القاهرة غير سريع التدفق .. إلّا أن بسيوني سيجيبك متنهدًا : إنه ليس نيلنا .. إن ملاحقة أصحاب الشواطئ من مُلاك المطاعم السياحية العائمة ، وبوابي السفارات وحراس فيلات أولاد الناس النظيفة بالطرد المتواصل، والتهديد بالسحل والتشريد وزيارة ما وراء الشمس هي التي دفعتنا إلى الرقة دفعًا ، فأهلها في غاية الطيبة .. ناس زي

الشربات .. يرحبون بالضيوف القادمين من " مَصْر " وكثيرًا ما يقدمون لنا الشاي إذا نفد تموينا ، بل والولعة أيضًا وبواكي المعسل ..

* * *

لم يكن سير السيارة بنا متصلًا .. فاليوم هو أول رمضان .. والإفطار لم يبق على موعده سوى نحو ساعة .. لذا فإن التنافس كان على أشده بين أصحاب القرى الواقعة على الطريق لإيقاف جميع السيارات المارة .. بالقوة – نعم بالقوة – لـ " يشرِّفها " المسافرون بالإفطار على موائدهم المنصوبة على جانبي الطريق ، عليها قمر الدين والعرقسوس والسوبيا، وخبزٌ وأرزٌ، و–طبعًا – مخلل، أكثره من اللفت ، فالدنيا شتاء .. واللفت ابن حلال ، ينبت في أي غيط .. في حِمى البرسيم والفول من دون بذور أو سماد أو أدنى رعاية ..

إذا أفلحت السيارة المسافرة في التخلّص من هذه الضيافة الجبرية فإنها لا بد ينالها عند كل مائدة أمران : تأخير يتفاوت مداه من دقيقتين إلى خمس .. يحدد مدى هذا التفاوت حاصل جمع حاتِمِيَّة وعناد المضيفين مع عجلة وتمنُّع المسافرين ، أما الأمر الآخر فهو وابل – نعم وابل لأنها تُقْذَفُ قذفًا – من أكياس العرقسوس والتمر الهندي والتمر وسندوتشات اللحم المسلوق والأرز تُلقَى بمهارة لا تخطئ عبر نوافذ السيارة لتستقر في حجر المسافرين فتكون ضمن طعام إفطارهم فلا يضيع أجر إفطار الصائم ، إنهم أحفاد من قال لعبده : إن جئت بضيفٍ فأنت حرٌّ لوجه الله .

أفلحت سيارتنا في الإفلات من هذه القرى جميعًا لكن حاصل جمع عجلتنا مع عناد رُماة طعام الإفطار وشرابه لم يكن في صالحنا .. لقد بلغنا الرقة في وقت الإفطار .. بالضبط وقت الأذان .

سعد السائق بهذا .. فهذه بلده ..

و لم يحزن الصيادون لأنهم منذ نزوعهم من بيوتهم ، ونفوسهم مهيأة لهذا الإفطار الخارجي ..

وضاعت أحلامي .. لقد فات الإفطار مع أسرتي وليس لي إلّا أن أفطر هنا .. في الرقة .. ثم أبحث عن سيارة أخرى أواصل بها السفر ..

وقفت مع الصيادين بعد أن وضعنا حقائبنا وأكياس الطعام والشراب فوق ظهر إحدى السيارات الواقفة عند مدخل الرقة، بعد أن تركنا السواق وذهب إلى بيته ليفطر بعد أن دعانا بحماس حقيقي إلى الإفطار معه .. وإزاء رفضنا لم يملك إلا التنازل عن أجر التوصيلة ، واحدة بواحدة ..

وقفت أبلع ما في يديّ من طعام دون أن أميِّز بين الحلو والحادق .. هذه هي مائدة أول رمضان ! .. أرز بارد ، وكركديه ناقص سكر .. السكر الخفيف نعمة في الشاي والقهوة أما في الكركديه والخروب والتمر الهندي فمصيبة تُكَبِّل الأسنان بقيد غير مرئي كأنك شربت كلورًا أو ماء بطارية ، كل هذا فوق سيارة لا أعرف صاحبها ، على رأس الطريق الزراعي ، مع صيادين لا أعرف منهم إلا عم بسيوني ، وحتى هذا .. ما إن صدح الأذان حتى نسيني كليًّا .. كأنه فقد الذاكرة ، وأقبل على اللفت الذي كان له حضور مكثف على المائدة / السيارة .. أقبل عليه بنهم لا يصدَّق .

سفرة دايمة ..

ودّعني الصيادون ثم مضوا يخترقون شوارع الرقة وصولًا للشاطئ ليبدأوا ليلة صيدهم ، ووقفت وحيدًا على الطريق الزراعي أنتظر سيارة تحملني إلى بلدي .

* * *

التدافع والتجاذب ونهب الطريق .. القِرى المفروض والمراوغة العفيفة منه .. العجلة والقلق ومداومة النظر في الساعات .. كل هذا آب إلى صمت وخلاء ووحدة وسكون ..

ليس في الطريق مخلوق ..

كل الأبواب موصدة .. ودفء الأسر في اجتماعها حول موائد الإفطار والشاي والفوازير يكاد يثب من النوافذ المغلقة لا ليشعرك بالأنس وحرارة الألفة بل ليزيد إحساسك بالانفراد والبرد والوحشة ..

تكاثَفَ زحفُ البرد مع تسلل الظلام مع فراغ الطريق ليخلق اجتماعهم معًا جوًّا كئيبًا غليظًا .. يزيده كآبة تذكري الدائم لتبدد حلمي المشروع بالإفطار في جوف بيتنا في اليوم الأول .. ويزيده غلظة .. تَرَقُّبي الذي طال لأية " ركوبة " تمرّ ..

هذا السكون الرمادي الذي يعقب الغروب بدا جاثمًا بكلِّ قوة على الفضاء الماثل أمامي .. لا أثر لسيارة .. ولا ظل لإنسان .. الحركة معدومة .. لكن ما هذا ؟ هل الأشباح حدباء ؟ حتى الأساطير لا تقول هذا .. ثم ما هذه العصي الطويلة التي يحملونها ؟

إنهم هم : الصيادون !

هل يمكن لهذا الوجه الدائم البِشر أن يعبس كل هذا العبوس ؟

هل يمكن للسحنة التي كأنها ولدت تضحك أن تتجمع عليها كل هذه الزوابع ؟

– خير يا عم بسيوني ؟!

- ولاد الـ ..... ، مواسير المجاري حولوها كلها على النيل .. الشط كلُّه ريحته زي الزفت.. والمنظر يغم النفس .. ماقدرناش نقعد دقيقة واحدة .

* * *

لأن الصدمات لا تأتي فرادى .. فإن الصيادين ما كادوا ينهون لي وصفهم النازف حُزنًا للشاطئ وقد زيّنته مواسير المجاري ، حتى غطى على صوتهم نفيرٌ رفع انتباهنا إلى الدرجة القصوى ..

كان النفير للقطار الذي تركناه ..

تحرَّك بعد أن أزيلت من أمامه العربات الخارجة عن القضبان .. سار وقد خفَّت حمولته بعد أن غادره أكثر من نصف الركاب ..

مضى يتهادى أمام أعيننا مكررًا إطلاق صفارته .. ثم مضى !

* * *

الوقـــف

قل للمَليحة في الخِمارِ الأَسوَدِ

ماذا أَرَدتِ بنَاسـكٍ مُتعـبدِ ؟

قدْ كانَ شَـمَّرَ للصَّـلاةِ ثيـابَهُ

حتَّى قعدتِ لهُ ببَابِ المسْجدِ

مسكين الدارمي

أذكره ..
أذكره ولا أنساه ..
و كيف أنساه ؟!

أليس هو من جعل بلدنا محسودًا على " سره الهادي " وناسه الطيبين ؟ ألم يجعله مطمح ضباط مباحث المركز الذين يتنافسون على خطف بلاغاته التي تنتهي دائمًا أبدًا على فاشوش، حيث يتصالح الناس في كل مرة قبل كتابة المحضر ؟

جعله بلدًا مستكينًا لا يعرف المفاجآت السيئة ، بلدًا لا تجد فيه الأمهات ما تخوف به أطفالها .. ليسمعوا الكلام ، ويكفوا عن الزَّنِّ ويسكتوا وينام وا ، فلا غولة عندنا ولا عفاريت ولا أرواح غرقى ولا حرقى ولا مخطوفين .

جعله بلدًا تلعب فيه العيال الكرة وسط المقابر ليلًا - حيث المكان الطبيعي للخوف - على ضوء القمر ، بعد أن يكونوا قد أنفقوا نهاراتهم في مصّ القصب ، والتمرغ على التبن ، والمراهنة على طول النفَس في الغطس .

لا أحد هنا يموت إلا موتة ربنا ، البنادق لا تطلع إلا في الأفراح حيث تلعلع «الماوزر» و« اللي آن فيلد » في الهواء ثم تنخمد في دواليب أولاد الناس إلى إشعار آخر ، أما أولاد الليل فهم - بسببه - عواطلية يشحتون اللقمة .. آل أمرهم إلى العمل - آخر الزمن ! - سمّاوية يغتالون الكلاب السعرانة

والسلعوات والذئاب التي تجرؤ نزقًا وغباوة على الاقتراب من بيوت البلد وغيطانها ، أما أوقات فراغهم الطويلة فمع الدومينو والطاولة والكومي، يحاولون قتل وَحْش اسمه الزَهَق لا يريد أن يموت ، ويساومون عزوز – صاحب القهوة الوحيدة التي تملك دِشًّا – كل يوم ويبوسون أقدامه إن لزم الأمر ليفتح لهم قنوات القباحة ولو ساعة .. ساعة واحدة ، لكنه دائمًا لايستجيب إنه– بصراحة – يعمل له ألف حساب .

إنه مولانا .. الشيخ الحكيم .. الإمام في الصلاة .. المرجع في الفتوى .. مؤسس مسجد القرية ، ذلك البنيان العتيق الذي يحتل أروع دروب شرق البلد ، وهو قبل ذلك.. سيد مجالس الصلح التي وأدت كل عركات بلدنا فدُفِنَت قبل أن يكتب عنها نصف محضر، بل حتى قبل أن تصل الشكوى إلى مركز الشرطة ، فمن مثله يفهم ناس البلد ؟ ومن غيره يعرف "دواخلهم"؟ شكله ؟

تحمل ذاكرتي عنه صورتين ، صورةً قديمة .. مغبّشة قليلًا ، أرى فيها قامةً مستويةً ، وخطوةً سريعةً متلاحقةً ، وشاربًا ودودًا مترفعًا مثل شارب مصطفى كامل ، لا تزال به شعرات سود منسجمة تمامًا مع وجهه الوردي وبشرته الكاملة النقاء ، كأنه ابن بندر ، وعمامة بيضاء متقنة الحبك ، وجلبابًا يقطر نظافة ، نظافة تخطف العين .

ثم صورة أحدث ..

الملامح هنا أوضح .. فيها تجد القامة – أيضًا – لا تعرف الانحناء .. وإن صار يجبرها على الاستواء بعناءٍ ملحوظ ، والخطوة منهكة ينقل بها نعليه بمشقة بالغة ، والشارب أبيض كالثلج ، وأما العمامة فقد ارتخت ، وأما قبضته

التي كانت تنضح عافية فقد أصبحت الآن مستكينة مسالمة .. فقط أصابعه تسبح بحمد الله أن مدّ في عمره وجاوز السبعين وقد سلم العقل والسمع والبصر من عوادي الزمن .

* * *

تحريفات العامة للفصحى تفيض عن الحصر ، والنداء الشائع لمولانا مثال لهذا التحريف ، فأكثر أهل البلد ينادونه " سيَّدنا " بفتح الياء المشددة بدلًا من كسرها ، أما " مولانا " هذه فلا يستخدمها إلا قلَّة في بلدنا ، ومثلما فعلت هذه القلة سأفعل ..

لماذا ؟ ..

حسنًا .. بيني وبينك .. مولانا وقعها على الأذن أجمل من سيدنا .. والموسيقى عندي نقطة ضعف إذا استخدمتها في مهاجمتي دَحَرْتَنِي تمامًا ، ثم هي - مولانا - كلمة تحمل في أحشائها فكرة قبول السلطة الروحية للرجل ، والرضاء السعيد بها ، وكأنها مظلَّة غير مرئية تجلب للمنضوي تحتها شرفًا وسعادة ، فهي قادمة للتوّ من جوّ حضرة صوفية مضمخة بعبير القرفة والبخور والمدد ، بخلاف سيَّدنا ، هذه الكلمة التي لا تسلم من تهمة الإيحاء بالرئاسة المفروضة والتسيد الجبري الذي لا يترك للخاضعين لسلطانه خيارات أخرى سوى الانصياع المطلق ، والرضوخ المستكين .

كنت كلما سمعت أهل قريتنا يفتحون ياء "سيدنا" قلت : سبحان الله!، فمولانا نفسه كان أحرص ما يحرص عليه اللسان العربي ، يحب الشعر ولا يساوم في نطقه موزونًا خاليًا من الكسور والرضوض .. يعرف من شوارد اللغة ما يعجب له المتخصصون ، تراه يمضي يشرح للعامة أصول

اشتقاقات عامِّيَّتِهم من مفردات الفصحى حتى يُذهَلَ أنبههم حين يعلم أن لسانه يجري بما أصله فصيح بليغ ، إن لمولانا عقلية تأصيلية نادرة ، وهي في الآن ذاته .. تبسيطية .. تسمو على التعقيد ، إلا إذا اشتهت نفسه " التقسيم " على سامع متعالم قد فغر فاه وتدلى فكُّه ، غير فاهم ما أخذ مولانا يشرحه له .. مع أنه يزعم – بكل تواضع – أنه أبو العريف ، وأن الخيل والليل وأبصر إيه تعرفه ، وأن الشهادات لا تساوي شيئًا ، وأن أصحاب الليسانسات آخر خيابة .. إلخ .

أبو العريف هذا عندنا منه الكثير.. سلالة في منتهى الظرف ، إذا خلت منهم الدنيا فما أثقل دمها ، وإذا غابوا عن قعدة فلا تنتظر أبدًا أن يصل الضحك فيها إلى درجة "اللهم اجعله خير"، متشابهون إلى مدى يثير الشك في عفة الأرحام التي أنجبتهم جميعًا وكأنما من بذرة واحدة .. ومع ذلك لا يطيق الواحد منهم شقيقه .. إذا اجتمعوا فإنهم – لا بد – يتناقرون بشراسة .. كأنهم ضرائر ..

يحملون – دائمًا – أسماءً معبَّأة للشهرة .. قابلة للتوهج بطبيعتها .. أسماءً من قبيل : صبري أبو عبد الحميد .. منصور أبو كامل .. حسين أبو رشدي .. أسماءً إذا حذفت منها مقطع " أبو " صارت مهيَّأة تمامًا لأن يكون صاحبها مديرًا لبنك ، أو محافظًا لمدينة ساحلية يجيد أطفالها – بفضل السياحة – كل لغات العالم .

ويلبسون – دائمًا – شالات لا تناسب الموسم .. صوف في الصيف ، ولينو في الشتاء ، وخواتم ذات فصوص كبيرة بلون دم الغزال يحرصون على تحريكها عند الوضوء حتى تنعقد الصلاة صحيحة ..

ويتدخلون – دائمًا – في كل حوار لا يعنيهم ويُدْلُون باقتراحات تتألق بريقًا ، لكن لا صلة لها مطلقًا بموضوع المناقشة ..

هذا صيد ثمين لا يفلته مولانا أبدًا ، بل يجاري الرجل في حديث نصفه كلمات حتى الشياطين لا تعرفها .. وكلما بدت بارقة أمل لفهمه ، عتَّم مولانا منافذ الوعي عليه بتضليله باصطلاحات يتيسَّر له أن يستبدل بها كلمات سهلة .. بسيطة.. مما يفهمه الناس .. إلا أن مولانا وقد استبدت به روح الدعابة لا يبرح يغلق عليه سبيل الفهم .. ومع حرص السامع ألا يبدو جاهلًا .. وحرص مولانا على أن يفضح تذاكيه .. يتصاعد الموقف ، وتحتد المراوغة .. يدنو الفهم .. وتوشك الفكرة أن تتضح .. ثم يأتي مولانا بكلام كأنه من عالم آخر يلقي بصاحبنا في بئر عميقة ، ولا ينتهي المشهد إلا بقفشة من مولانا يضج لها الحضور ضحكًا، وأولهم السامع المتذاكي الذي يقول وقد ملأت دموع الضحك عينيه : كده برضه عملتها فيَّ يا سيِّدنا ..

لقد فاته أن يتوقع أن مولانا قد يفعلها ، والحق أن علمه بأن شهوةَ التنكيت لا تتردد في احتلال نصف كلام مولانا .. كان ينبغي أن يكون له نذيرًا .. فيحذر – من ثم – أن يكون موضوعًا لدعابة تدور بها ألسنة أهل البلد ، لكن مظهر مولانا الجِدِّي ، وغلبة الوقار عليه .. من جهة ، وتذاكي صاحبنا من جهة أخرى ، يدفعانه لهذا المصير .. فيمسي موضوعًا لحكاية جديدة تدور في البلد من أقصاها إلى أقصاها .. تمامًا كما حدث مع الحاجة يامنة ..

لكن من هي الحاجة يامنة ؟

* * *

الحاجة يامنة امرأة عجوز ، محنية الظهر ، ذكية إلى درجة مخيفة .. درجة أنها بكل سهولة " تعرف القرد مطرح ما يخبِّي ولده " بل وتستطيع أن تقنعه – القرد – أنه ليس قردًا ولا حاجة ، خفيفة الظل رغم بخلها الذي تنافس في وصفه الجاحظ وشكسبير وموليير وشوقي – ما سرّ اجتماع البخل مع خفة الدم ؟ ، مخها كالمرجيحة له في كل يوم مطلوع وفي كل ساعة مشروع ، وبصرها الأعشى يجعلها ضبشاء ليلًا ونهارًا ، لا تبصر أبعد من عشر ياردات، إلا إذا زرَّت عينيها وأحكمت التصويب – وهذا لا يحدث إلا في المُلِمات – فإنها حينئذٍ تميز بدقة ميكروسكوبية مذهلة بين ذكور النمل وإناثه ، وبين الفلوس التي تحمل علامة مائية ناصعة كالحليب فتقبلها ، وتلك التي ماعت علامتها وطمسها العرق وطول التداول فلا تمسها ولو ذبحوها ؛ لهذا .. لأن زرّ عينيها لا يكلفها قرشًا واحدًا .. فإنها ترفض باستماتة كل المحاولات المبذولة لإقناعها بأن ارتداء النظارات ليس علامة عجز كلِّي ، وأن أصحابها ليسوا من ذوي الاحتياجات الخاصة .

حجَّت يامنة بيت الله .. لأجل هذا يعلو جدار بيتها رسم لطائرة أحد جناحيها أطول من الآخر .. بكثير .. ولا تسأل من رَسَمها عن سر هذا الاختلاف .. لأنه سيجيبك بصبر نافد .. ضيِّقًا بقلَّة درايتك بأبسط نظريات الفراغ والبعد والمسافة : الجناح القصير ده علشان بعيد .. والحاجة البعيدة تشوفها صغيرة ، فتعلم أنك رجل محظوظ .. إذ قدِّر لك أن ترى صورة بالبعد الثالث من رسم فنان القرية المبدع " علي أبو الوحش " ، نعم : أبو الوحش ، فقد كان أبوه كجذع النخلة ، يشرب السمن البلدي بالكوز ، ويمسح الكتابة عن النقود المعدنية بإبهامه ، كأنها – الكتابة – بقلم رصاص كالح الخط ، أو كأنها – إبهامه – مبرد حدَّادي ألماني الصنع ، ومع ذلك فقد خلف لنا ابنه عليًّا

هذا الفنان ، خلفه هفتانًا ممصوصًا ميتانًا .. لا يشبهه في شيء ، بل إن سحنته الصفراء المكرمشة – رغم يفاعته – تقول لقوانين الوراثة .. كل صباح .. بالفم المليان: اشربي من البحر .

وعلي أبو الوحش حاصل على " دبلون " زراعة ، لكنّه بفضل الله موهوب جدًّا بالرسم .. وهو أيضًا الذي رسم الباخرة التي تجاور الطائرة ذات الجناحين النادرين ، ولا أدري إن كانت الحاجة يامنة قد سافرت بالطائرة أم بالباخرة.. ولا يفسر الأمر إلا أن الذهاب كان بوسيلة والعودة بالأخرى .. رغم تنائي هذا التفسيرعن المنطق المقبول .

وقد كتب أبو الوحش – نسيت أن أذكر لك أنه خطاط أيضًا – أعلى باب البيت : الحاجة آمنة محمد عبد الستار .. حجت ولبَّت وزارت قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبخطِّه أيضًا قد كتب على بطن الطائرة العجيبة بالخط الكوفي " مصر للطيران " .. إن أبا الوحش وطنيٌّ حتى النخاع .

* * *

بيت الحاجة يامنة .. علامة استفهام كبيرة .. لأن ما تقيم به الحاجة فعلًا غرفة واحدة ، تلك التي كان يشاركها فيها زوجها المرحوم أحمد علي عبد الستار – ابن عمها – قبل أن يتوفاه الله ، أما الغرفة المجاورة التي كان يقيم بها ولدها الوحيد حمدي ، فقد خلت بعد أن تزوج شاغلها وعَزَل – بدون تشديد الزاي .. أي استقل بالسكنى مع زوجته – أما باقي البيت ففناء واسع بلا شاغل ، يحيط بهذا كله ذلك الجدار الذي سجل عليه أبو الوحش رسمه الخالد ..

وأمام هذا البيت جلست الحاجة يامنة في ظهر ذلك اليوم الذي جرت فيه حكايتها مع مولانا ، وقد شغل تفكيرَها أمرُ بيتها ، منذ رمضان الأخير وهي ترى في اتساع فنائه بواخًا لا تطيقُه ، أتاح لها الجوع تأمل امتداده غير المبرر .. وجدته رابضًا بوقاحة ، جاثمًا ببرود ، مسترخيًا ببلادة ، لا يقصِّر في تذكيرها بلعب حمدي فيه .. يذكرها بأيام الشباب الذي أفلت منها بنذالة .. كلاهما أفلت بنذالة .. الشباب وحمدي .. كان هذا المفعوص يملأ عليها يومها .. هو الآن مع زوجته .. يُداديها وينساني .. بَلَفَتْهُ الملعونة ، زياراته تتناقص تناقصَ العمر .. ووحشة البيت تتزايد تزايد الشيب ..

سبب الوحشة ولا ريب هذا الفناء الطويل العريض ، هذا النطع المجرد من الشعور ، ألا نستريح من سحنته ؟

لكنها لم تَبِع شيئًا في حياتها ، إنها تلميذة تلك المدرسة التي ترى في البائع دومًا الطرف العبيط الخاسر مهما غلا الثمن ، والمشتري ناصح عكروت تثبت الأيام دومًا أنه كان أشطر من ذلك الذي باع وبدد الفلوس في الفاضية والمليانة .

ثم إنها إن باعت الفناء لن تسلم من التلسين .. إن جاراتها سَيَسْلُقْنَها بألسنةٍ حدادٍ ، ما في هذا من شك.. ونسوان بلدنا .. أجارك الله .. يا حفيظ! .. التجريس بالجلوس مقرفصًا بالمقلوب على ظهر حمار أعرج لا يكف عن النهيق ، وعلى رأسك طرطور به شخشيخة، وخلفك قطيع من الحرافيش يرجمونك بالبيض الممشش، وينشدون شتائم مسجوعة كتبها نجم في السجن في لحظات سلطنته .. هذا التجريس أمره أهون بكثير من جلسة عصاري أمام البيوت تتربَّع فيها النسوان .. يقزقزن لب البطيخ ويمصمصن ويتصعَّبن وهن

ينهشن سيرة أسلافك ، ويخضن في أعراض جدودك ، ويبتكرن تفاصيل لم تحدث مطلقًا ، وبتقنيات مخابراتية .. يسمحن لأصواتهن بأن تتدرج تدرجًا محسوبًا من همس وودودة ، إلى صيحات مسرسعة عند الكوبليهات الحرَّاقة، لتتسرب الأسماء والأحداث إلى آذان العيال المتسللين إلى الجلسة كل خمس دقائق ، متذرِّعين بطلب حفنة من لب البطيخ .. أو كوز ماء من الزير القريب – أموت من العطش يعني؟، والمراد طبعًا معرفة هوية المفضوح .. وإذا وصل الأمر إلى العيال .. انقضى الأمر .. وثبتت التهمة .. وتلوثت صورتك في وجدان أجيال جديدة .. كان من الممكن جدًّا أن تحبك ، وتحترمك ، وتعشق ابنتك ، وتصاحب ابنك ، أما وقد حُفِرَت ذِكرى الجُرسة في رخام ذاكرتهم ، فأنت خليع أبدي ، وطريد كلاسيكي ، ليس أمامه إلا الهجرة إلى بلاد بعيدة .. بلاد ليس فيها نسوان من هذه الفصيلة .

ولأن الحاجة ليست بالبلاهة التي تعرضها للوقوع ضحية لجلسة عصاري من هذا الطراز فإنها نبذت خيار بيع الفناء من تفكيرها نهائيًّا ، فلم يعد واردًا بالمرة ، صحيح أن الأجل قد دنا إلا أنها لن تختم حياتها بفضيحة ، لابد أن يكون تصرفها فيما لا تريد .. تصرفًا يضمن لها علوًّا في الحياة وفي الممات .. كوزراء إيران .

* * *

اليوم جمعة .. ومولانا فرغ من الخطبة ، وأتم الصلاة ، وانتشر الناس في الأرض ..

والحاجة يامنة متربعة على عتبة دارها في رسوخ جلسة الكاتب المصري بأبدية لا تقهر ، وسبحتها ذات التسع وتسعين حبة متدلية من يدها حتى

لامست التراب ، تمرر حباتها على الفاضي .. دون تسبيح ، فعقلها ما زال مشغولًا بالفناء ، وخواطرها تلك لا تبرح رأسها، ولا تهديها لما يرضيها ، وبصرها التلسكوبي – رغم انشغالها – يتتبع الرائح والغادي دون تعب .. وكان مولانا كعادته آخر مغادري المسجد ، يستبْقيه مصلُّون كثيرون .. هذا يستفتيه .. وآخر يدعوه لزفاف ولده .. وثالث يفتح نقاشًا حيويًّا جدًّا عن انتخابات المجلس الشعبي المحلي ، أو مصاريف المدارس ، أو عيوب خطوط التليفون الجديدة التي تحشرج كالمحتضرين وتنقطع عنها الحرارة ساعة الذروة .. فلا يخرج مولانا من المسجد إلا وحوله كتيبة من أهل البلد .. يحاصرونه .. ولا يفرجون عنه إلا أمام بيته .. وهو في طريقه إلى بيته يمر ببيت الحاجة يامنة، وهي في تتبعها للمارة أبصرته، فطردت أفكارها؛ إذ ومض لها خاطر لما رأت مولانا ..

أي قدرٍ جعل هذا الخاطر يغامر .. فيخترق شالها وحِرْدتها وشعرها الذي جعلته الحناء في لون ثمار التين الشوكي الناضجة ليصل عبر هذه الحواجز كلها إلى تلافيف مخها ؟

ثم كيف استقبل دماغُها الأنشف من منظِّم البوتاجاز هذا الخاطر وأنزله منزلة الكرام ، ولم يطرده مشيَّعًا بألف لعنة ولعنة على رأسه ورأس الذين لم يستحيوا ، وفي ليلة سوداء أنجبوه ؟

كيف سمحت لهذا المونولوج أن يعربد في رأسها ويصول ويجول وكأنه في بيت أبيه ؟

بدأت بسؤال .. ثم تقافزت الأفكار ..

ما المشكلة إن تبرعت بفناء البيت ليجعلوه مسجدًا جديدًا ؟

إن الناس يحبون مولانا – بالأساس – لأنه بنى لهم الجامع القديم، وهاهم يحيطون به وكأنه سيدي الفولي .. شايلينه شيل .. على القهوة لا يدفع مليمًا، بل تنطلق الطلاقات كالقذائف ليشرب على حسابهم ما شاء من الشاي واليانسون والحَيَّاقَة[1]، وفي الشارع يترجل أجدع شنب عن حماره إذا لمحه من آخر الدرب، وفي الجنازات يحلف أهل الميت أغلظ الأيمان إن حضوره العزاء أنساهم الوجع، حتى في دهاليز السوق .. هل تجرؤ بطّة النصابة – أسوأ من اشترى البيض وباعه في طول هذه الدنيا وعرضها – هل تجرؤ على سرقة زوجته جهارًا نهارًا كما تفعل معي ؟ .. هل فكّر – فقط فكّر – منصور الفكهاني في أن يبيعه رمّانًا "عُقْب سوق"[2] مثلما فعل مع حمدي ضنايا ديك النهار ؟

وحتى في الحج .. زفُّوه كالعروس عند السفر والعودة ، وأنا الذي سبقته في الحج بخمسة مواسم لم يشيِّعني أو يستقبلني عند الباخرة إلا ابني حمدي – اتضح الآن أن أبا الوحش فشارٌ كبير وأنه لا طائرة في الأمر ولا يحزنون– ذهبت وحدي وعدت وحدي .. كالعنزة الجربانة .

إني إن فعلت ما فعل .. كتبت اسمي في الخالدين ، ودخلت زمرة المعاملة "المخصوص" ، وتخلصت من الفناء المزعج ، وأما الجارات.. هذه النسوان العقارب .. كلبات الفلوس .. مدعيات الكرم زورًا وبهتانًا – وكأن الكرم فضيلة ! – فسيحترقن غيظًا ..

أوضتي فيها الكفاية .. كل الكفاية ، وكنسها وحدها أسهل من هذا الفناء الذي حنى ظهري ويستهلك كل عام مقشتين ، ومع ذلك لم يتمر فيه .. بل

---

(1) الحيّاقة : الاسم الشائع للحلبة في كثير من قرى الصعيد .

(2) عقب سوق : وصف للفاكهة المتبقية عقب انتهاء السوق ، فتكون – بالضرورة – رديئة .

إنه لم يتورع لحظة عن تطفيشي بطلعته البايخة، ونطاعته السمجة ، وطوله العريض ، وعرضه الطويل .

ثم الجامع الجديد ! .. همهمة تسابيح المُصَلِّين عبر الحيطان أحلى ونس ، ومن جاور السعيد يسعد ، على الجنة طوالي .. طوالي ! عند النبي .. عند النبي .. ألف صلاة عليك يا نبي ..

هاشرب من إيده وما عْطَشِّـي
هاشرب من إيده وما عْطَشِّـي

وتسخينًا للموقف ، استغل الخاطر المكّار فرصة هذا الغناء الجوّاني الراقص ، وأطلق بكل جرأة زغرودة نحاسية صدّاحة صهللت في رأس يامنة فارضة عليها جوًّا سحريًّا يستحيل الفكاك من أسره ، جوًّا يتعذر على الخاضع لتأثيره أن يتصرف وفقًا لمقتضى العقل .

* * *

كيف فكرت الحاجة يامنة في شيء كهذا ؟ ، أليس الإجماع منعقدًا على أن بخل الحاجة يامنة من المسلمات الرياضية كقوانين الجاذبية والطفو ؟ .. نعم بخلها معروف وليس سرًّا .. هو أمرٌ يتندر به العيال ، ويعيِّر به الناس وحيدها حمدي حتى بعد أن بلغ مبلغ الرجال ، في كل يوم لها ألف خناقة مع ابنها لأن إيده مخرومة ، ومع شفيقة الخبازة لأنها تخنصر من الدقيق ، ومع بيّاع الشباشب البلاستيك لأنه ورطها في جوز رديء الصنع داب في أقل من سنتين .. يومها – يوم الشبشب – صرخت بملء فيها :

– بأربعة جنيه يا ناس وما يكمِّلش شهر ؟! والله ده كُفر ! أنا لاقية الفلوس في الشارع يا اخواتي ؟!

تتبرع ؟! إنها إن لم تبع فناء بيتها مخافة الشَّيْن فإنها أبدًا لا تبذله بلا عوض .. لكنها اتخذت القرار وشرعت تنفذه .

– يا مولانا .. يا مولانا .

بصوت أوهنه الكبر نادته وهي تبربش بعيون ظلت جميلة رغم الرمد الربيعي المزمن والمياه البيضاء والزرقاء وكل الألوان .

تخلّص مولانا بلباقة من رغي منصور أبو كامل ، الذي لا يتعلم من تجاربه الماضية أبدًا ، فأخذ يهيئ نفسه بكل حماسة ليندبَّ كالجردل في مطب جديد حاول مولانا تخليصه منه حتى لا يصُبَّ الناس التريقة على قفاه ككل مرة، لكنه كان مصرًّا على إثبات أن الناس .. كل الناس .. بمن فيهم مولانا .. لا يفهمون في هذا الموضوع كما يفهمه هو – كان الحديث عن الموازنة بين الملكية والجمهورية وهل عودة الملكية شيء مليح أم ماذا ؟ بدا واضحًا إذن أن مولانا مضطر لتركه يتدحرج في الحفرة التي حفرها لنفسه ، واستعد المحيطون بمولانا لمشهد جديد يدور السامر على حسِّه في قهوة عزوز حتى مطلع الفجر ، لكن الحاجة يامنة أنقذت منصورًا من نفسه ؛ لأنها وقد نادت مولانا فقد استحال عليه التأخر للحظة واحدة ؛ إذ كان مولانا جنتلمانًا حقيقيًّا ، فبتر حديثه مع منصور ، وأقبل بكلِّيته على يامنة ، مضيّعًا على عزوز أرباحًا فلكية كان سيجنيها من تقديم مشاريب سيكعٌّ منصور ثمنها لكل من هب ودب ، مسحًا للجوخ ، وتلطيفًا لحدّة المسخرة على هبالته .

– السلام عليكم يا حاجة .. خير إن شاء الله .

في هدوء لا يتسنى مثله إلا لمتمرس في التقوى شرعت تقول :

– خير يا سيّدنا .

وطبعًا سألته أولًا عن الصحة والأولاد ثم دخلت في الموضوع بعد ذلك، أنهت الديباجة ، ثم طفقت تدلق خواطرها ..

قالت وهي لا تكف عن مداعبة السبحة :

- أنا قلت لنفسي يا حاجّة - وتضغط بدلال على جيم حاجّة مؤكدة استحقاقها اللقب - لازم تِخْتِمي حياتك بحاجة ترضي بيها ربنا وتنفعي بيها الناس .. فأنا قلت إن الجامع الشرقي - الذي بناه مولانا - ضاق على الناس ، فالأحسن لأجل وجه الله أتبرع بالحوش بتاع البيت ، ينفع قوي يبقى جامع ، مليح وواسع .. وعالجسر[1]، وأنا هنا هتكفيني الأوضة بتاعتي .. أسد بابها اللي فاتح عالحوش ، وافتح فيها باب ورا في ضهر البيت .. عالبح[2] ، حاجة تشرح القلب ..

مولانا سريع التفكير ، ليس من عادته أن يبطئ في جواب .. لكنه هذه المرة طال صمته ، هذه المرأة كل يوم على حال يستحيل الوثوق بكلامها وشطحاتها وخطرات وساوسها ، فمزاجها الزئبقي سيجعل أي عارض - وليس البخل فقط - يصرفها عن مشروعها الخيري الذي تزمع تدشينه ،

(1) الجسر : هو الطريق الرئيسي في بلدنا، وقديمًا كان حاجزًا يمنع ماء الفيضان عن البيوت التي تحتمي به ، ويعبرون فوقه من البيوت إلى الغيطان والعكس ؛ لذا سموه جسرًا .. وبعد بناء السد ملأت البيوت ناحيته الشرقية وصار الطريق الرئيسي في القرية الذي يفصل طوليًا بين شقيها الشرقي والغربي ومع ذلك ظل اسمه .. الجسر .

(2) عالبح : على البحر ، أي على النيل .. وأكثر بيوت بلدنا المطلّة على النيل لا تفتح أبوابها عليه بل تعطيه ظهرها وتوليه جدارًا منيعًا ، تحسُّبًا للصوص متوقعين بقوارب ترسو على الشاطئ بسهولة ، ويسرقون البيت- إذا كان بابه يفتح على النيل فالباب يسهل كسره- في غفلة من أهله ويفرون قبل أن يدركهم أهل القرية .. استراتيجية دفاعية لا أكثر ، وهذا يعني أن الحاجة يامنة ستضحي تضحية مزدوجة ، فناء بيتها ، وأمنها الشخصي .

وهكذا بعد أن تتيه بفضلها على الجارات ، بعد أن تبني لنفسها هرمًا ، وبعد "الطنطنة والشنشنة والإعلامات" ، تأتي عند التنفيذ وتفتعل إشكالية .. لأي سبب .. تعوق البناء .. ثم تنسب سبب التعطيل إلى مولانا ، تنسب التعطيل إليه ، وتفضحه .. تفضحه وتجرسه ، محصَّنة في هجومها هذا بأقوى درعين يمكن لمخلوق في بلدنا أن يتسلح بهما : أنوثتها وسنها ..

ستقول : ديمة (دائمًا) يوقِّف المراكب السايرة ، كتيرة عليا الجنة ؟ .. هو وحده يعمل جوامع للناس وانا إيه ؟ .. مجوسية ؟ ده حتى عمره ما شال سبحة ، ولا ربى دقنه .. كل يوم يحلقها تقولشي عريس ! .. عايز الدنيا والآخرة .. شوف الطمع .. يا إما دي .. يا إما دي !

أراد مولانا أن يجس عزمها فتساءل :

– مش هتشاوري حمدي ابنك في الأول قبل ما ..

في ثورة عارمة قاطعته :

– هو جحا أكبر ولا ولَده ؟! ، أنا الكبيرة ، وأنا صاحبة الكلمة ، وده ملكي ، وأنا حرة فيه ، واللي أقوله فيه يمشي ، وحمدي ملهوش دعوة .

مع أن ردها كان حاسمًا .. إلا أن مولانا أراد أن يعلق الموضوع لذا كان رده بنهاية مفتوحة :

– هانشوف إن شاء الله يا حاجة .. سلام عليكم .

وانفلت مسرعًا .. يُغَرْبِل مُخَّه .. بحثًا عن مخرج ينقذه من هذا الفخ المعتبر..

يا كرمك يا رب !

ما إن غادر مولانا مرمى بصرها حتى قابل شابين يحملان مقطفين وفأسين .. عين المراد من رب العباد .. هما الآن يقصدان بيت أبي الوحش الذي اشترى فرنًا إفرنجيًّا فطلبها ليعاوناه على هدم الفرن البلدي .. فلينتظر أبو الوحش وفرنه الآن .. سأكلفكما بمهمة .. تحت أمرك يا مولانا .. تعرفان بيت الحاجة يامنة ؟ .. طبعًا يا مولانا طبعًا .. ستذهبان إليها و.. .. ..

بعد أن فهم الشابان المهمة .. تركا مولانا الذي تجمع حوله أزواج نسوان البطيخ – الطيبون للطيبات – يسمعون تفاصيل اقتراح الحاجة غير مصدقين على الإطلاق إمكان حدوث تبرع كهذا من جانبها دون ذيول .

جلسوا جميعًا يراقبون ماذا سيكون ردها على سفيرَي مولانا اللذين حملا المقاطف والمعاول وسارا إليها حتى بلغا مجلسها ، وبنبرة مسرحية صفعاها :

– السلام عليكم يا حاجة .. مولانا باعِتنا نهد الحيطة بتاعة الحوش علشان نبدأ بكرة الصبح نبني الجامع .. نبدأ نهدّ من أنهي حته في الحيطة بالظبط؟

أُخِذَتْ بما قالاه .. وأخذت أكثر بما يحملانه من معاول ..

بدأ الخاطر الضدّ عمله ، قبل حتى أن تَهِمَّ يامنة باستدعائه ، هرع إلى نجدتها واثبًا بسرعة الفهد ، بدا أصيلًا ذا جذور ضاربة في أعماق أعماقها ، وليس طارئًا دخيلًا كذاك الوقح الرقيع الذي اقتحم وجدانها دون استئذان، ثم بادر – دون خجل – بإطلاق الزغاريد ... كالغوازي ، فجعلها تتهوَّر وتطيش.

بدأ الخاطر الضد .. الشهم الأصيل .. العاقل الرزين .. بدأ الوشوشة :

الحكومة بجلالة قدرها أنفقت في تجديد جامع الفولي خمس سنين .. وهذان البغلان لا يصبران شهرًا أو شهرين ؟ .. أهكذا يا سعد تورد الإبل؟ .. بيوت

الناس المحترمة تنهدم في ليلة وضحاها .. هكذا ؟ .. ألا يمهلونني حتى أجد مكانًا بديلًا للأوز والفرُّوج الذي يسرح في الحوش ؟ ولكن أين هذا المكان؟ .. عند حمدي ؟ .. إن امرأته تسرق الكحل من العين .. ستقول – ضربة ف بطنها – الوزَّة ماتت يا عمتي .. وتكون الكذابة قد بعثت بها مريَّشة ، تَشْلِبُ ماءً ورديًّا ، لتستقر في بطن أمها التي لا تشبع من المال الحرام..

ثم هذا الثوم والبصل المعلق في حائط الفناء .. هل أنقله إلى غرفتي فيخنقني «الصنان» الذي لا تحتمله عيني ؟ – غرفة حمدي الملاصقة لغرفتها لا ذكر لها هنا .. تناستها تمامًا – أم أبيعه ولا أشتري إلا حين أطبخ كما تفعل النسوان الـهَجَّالة[1] ؟ .

سيّدنا طول عمره باله طويل .. إيش عجب المرة دي قلبه حامي ؟ .. هو كده .. في خراب البيوت زي القطر !

روّعها أن ترى ملكها يوشك أن يسلب على هذه الصورة ، وأدركت أن حديثها لمولانا كان خطأ كبيرًا .

ما هذه النزوات التي تأتي على الكَبَر ؟

ضربت صدرها بفزع وقالت :

– هيّه الحكاية حمري جمري !.. مش نستنّى لما اشاور حمدي ابني في الأول .. يمكن ما يوافقش ..

هنا برز مولانا وكأن الأرض انشقت وأخرجته مثل دفقات ماء الطلمبة .. وحوله خلقٌ كثير .. اضطربت لمرآهم يامنة .

(1) المرأة الهجالة : هي التي ترملت وتعيش بمفردها حياة بسيطة .. «يوم بيوم» ، وطبقًا لهذا المفهوم فإن يامنة كانت – حرفيًّا – هجالة .

قال مولانا :

- مش انا قلتلك يا حاجة شاوري ولدك طلعتي فيّا وقلتي ده ملكي ومش هشاور حد ؟ ومع ذلك .. ماشي كلامك .. لو بَعَتْنا لولدك دلوقتي ووافق .. يبقى انتهينا ونبتدي بكرة نِهِدّ ونبني ؟

هي تعلم أن حمدي كريمٌ كأبيه .. وسيقبل تبرعًا كهذا من دون تردد ..

تضييق الخناق عليها على هذا النحو أَجَّجَ غيظها إلى درجة الغليان .. والجمع الملتف ليتفرج برؤيتها متورطة عدده يزداد باطِّراد .. ما كل هؤلاء الناس ؟ .. ألا يكف الآباء عن الإنجاب ؟ .. ألا يعرفون أن العيال وجع قلب ؟ ولد واحد وطلَّع عيني .. ما هذا الهراء .. هل هذا وقته يا حاجة ؟

لابد أن أنسف هذا الكابوس ولو غطْرَشْت ، كلمة واحدة أمام هذا الجمع .. أفوه بها في حماسة حمقاء بتأثير استفزاز مولانا .. سأفقد بها أرضي .. وأجلس بعد ذلك على الباب الحقير الذي سيفتحونه لي على البحر .. أرقب الماء يتحرك بطيئًا سخيفًا .. أسخف من الحوش الذي أوشك الآن أن أفقده.

إن هذا الماء يجنن العاقل .. كيف يحبه الناس ويُغَنُّون له ؟ يجري هكذا كالعبيط ولا على باله .. وعلى مرمى حجر منه .. يغتصبون بيوت الناس الغلابة .

ثم حمام الجامع .. ألن يجعل رائحة البيت - أين البيت وهل سيتركون لي بيتًا؟ - ألن يجعل رائحة الأوضة كالكنيف ؟

وهؤلاء الرجال الخناشير .. في دخولهم للجامع وخروجهم منه ألن يكشفوا عورة بيتي ؟! ..

أنا الأرملة الوحيدة ! .. اللي اختشوا ماتوا يا ولاد ..

أتكلم الآن أو أصمت إلى الأبد ..

قالت بلهجة ثمانينية تتأرجح بين الحكمة والتخريف :

- حمدي ابني عيِّل .. لسه صغير .. هي العيال ياخدوا على كلامها ؟!

ثم بقفزة هائلة - لا يتاح مثلها إلا لبهلوان محترف في عمر أحفادها - أصبحت داخل البيت .. وبسرعة الحدأة .. أغلقت الباب .

* * *

الضبع[1] والعجوز

ما قالَ لا قَـطُّ إلا في تَشَـهُّدِهِ

لَولا التَّشَهُّدُ كانَت لاءَهُ نَعَمُ

الفرزدق

(١) الضبع في اللغة مؤنث ، مذكرها «الضبعان» ، لكن هل سيسامحني القارئ إذا خرجت عليه بقصة عنوانها «الضبعان العجوز» ؟!

رقبته طويلة غليظة ممدودة إلى الأمام ، وشعره تقريبًا بلا لون .. لا هو أصفر ولا بني ولا رمادي .. وعيناه كالزجاج يستحيل عليك أن تخمن أين تنظران ، ومشيته فيها عرج خفيف.. إذن هو تمامًا كالضبع .. ورغم هذا الشبه الرهيب ، فإن وصف المعارضة الدائم له بأنه ضبع عجوز ، لم يكن راجعًا فقط إلى أوصافه الفسيولوجية.

اختراق حرم العمل السياسي يصبغ صاحبه ويلونه ويبدله .. لكن أسّ الشخصية يبقى كما هو .. الثعبان يظل ثعبانًا .. والغضوب يبقى غضوبًا وإن كظم الغيظ وتكتّم .. وهذا الضبع ظل طول عمره ضبعًا .. لا يأخذ الخطوة الأولى أبدًا .. هو في الطبيعة آخر من يهاجم .. بل هو في الحقيقة لا يهاجم ، وإنما يأتي بعد أن تسلم الضحية الروح ، ثم ينهش ما تبقى من أضلعها بعد أن تعود السباع شبعى ، ولا يكتفي بالنهش ، إنه يسحق الضلوع نفسها .. يهشمها تهشيمًا .

إذا هاجمت الحكومة رجلًا ، أو شركةً ، أو قطاعًا ، أو جريدة .. فإنه لا يبدأ الحملة مطلقًا .. بل يظل هذا الضبع .. هذا السياسي المخضرم .. رجل الحاشية المقرب .. يظل متريثًا متربصًا حتى يستيقن أن الهجوم هو التوجه الرسمي ، وليس نغمة شاذة أو اجتهادًا فرديًّا غير معتمد ، ما إن يستوثق من أن الحملة تحمل تصديقًا رسميًّا علويًّا ، حتى تنقض تصريحاته بحماسة وشراسة واندفاع ، كأنها قضية حياته .. وهجومه ليس بذاءةً أو مراشقةً أو تجريحًا ، بل هو حديث

بليغ ، وعبارات مؤثرة ، ومناشدات قلبية .. ثقافة ورصانة وثقة على أتم ما يكون ، هكذا كان الرجل طول عمره .. في المدرسة والجامعة والوظيفة .. موقعه في الصفوف الأولى لكنه لا يطلق السهم الأول أبدًا .

* * *

عندنا – في الصعيد – يسمي الناس هذا النمط من المخلوقات " رِجْل دِكة " وفي كتب اللغة هو إمّعة .. وفي حين يدعوه أقطاب النظام " حكيمًا " فإن صحف المعارضة تسميه الضبع العجوز .. تحديدًا كبرى هذه الصحف هي من أطلقت هذا الوصف ، وللتحديد الأكثر تحديدًا ، فإن نائب رئيس تحريرها .. الصحفي الشاب .. الأستاذ هاشم سليمان هو من دشن استخدام هذا الوصف .

الأستاذ هاشم أكثر رجال الجريدة ذكاءً وثقافةً ونشاطًا ، يلقبونه بـ "دينامو الجريدة" ، أما رئيس التحرير فإنه من دونه لا يميز رأسًا من ذنب .

لأن الأستاذ هاشم هو أدرى الناس بالضبع ، فإن دهشته كانت كبيرة جدًّا ، حين أعلن له سكرتيره بصوت يرتجف أن الضبع منتظر بالخارج يطلب مقابلته .

* * *

لم يكن الأستاذ هاشم من المسرحيين أو من عشاق الدراما ؛ لذا فإنه لم يلجأ إلى كليشيهات هذا الموقف .. تلك الكليشيهات المعهودة من قبيل : انت متأكد ؟! .. بجد ؟! .. هو بنفسه ؟!

قال هاشم ببساطة :

– خلِّيه يتفضل .

دخل الضبع مبتسمًا .. واثقًا وأنيقًا..

ترك هاشم مكانه خلف المكتب وتقدم نحو الباب مستقبلًا الضبع .. استقبالًا رسميًّا .. بلا حفاوة .. لكن بلا جفاء ..

غاص الضبع في المقعد ، فهو بدين أكرش .. وفك أزرار الجاكيت ليجلس على راحته .

هذه الجلسة الاستوائية أقلقت هاشم ، إنها تبشر بقعدة قد تطول، ما الذي قد يريده رِجل الدكة هذا ؟

لكن أين البوفيه ؟

– يا سالم .. قهوة مظبوط هنا ..

ابتسم الضبع في دهشة رجلٍ زاد ارتياحه وسروره وقال :

– حتى دي تعرفوها ؟ انتو عفاريت والله !

لم تكن في كلمة عفاريت مسحة هزءٍ أو سخرية .. بل لم يكن فيها مجرد افتخار بأنه شخصية عامة يعرف الناس عنه كل شيء حتى مزاجه في البن .. لا .. لقد كانت فيها نغمة مديح لا تخطئ الأذن إيقاعها .. بل إن أنف هاشم اشتمَّت كذلك فيها تملُّقًا ومصانعة ، إن موهبة كشف ما تحت الكلام لم تخذل هاشم أبدًا ، لكن هذا غريبٌ جدًّا .. لماذا يخطب هذا الدُّون ودّنا ؟ إنه مدى حياته مثالٌ للصلف.. آخر جليطة وقلة ذوق .. هل تكذب حاستي ؟ هل أمتحنه ؟

إنهم يختبرون اللبن بتسخينه ، والبيض بوضعه في الماء ، والجلد بتعريضه للّهب .. أما الطاووس المتذلِّل فكيف نجسُّه ؟

نبش هاشم ذهنه سريعًا فوجد في تراثه طريقتين ..

إما أن تعدد مآثره وتطريه مغاليًا فتذكره بأوهام عظمته ، فيخجل من تصرفه المتملق بل قد يبرطم ويهين محدثه لمجرد أن هذا ذكَّره برفعته ، فهو إذن عظيم جدًّا وليس بحاجة إلى استجداء أحد ، لكن هذه الطريقة غير مأمونة ، فهذا المنفوش قد يمعن في التذلل ، يقينًا منه بأن سامعه سيقول : هذا المشهور العظيم المهم يمدحني أنا !

أما الطريق الثانية فهي أكثر ظرفًا وذكاءً ، وكذلك هي أيسر وأكثر بساطة .. وخلاصتها أن تدع المغرور ينافقك ، وتعاظَمْ أنت كأنك تعتقد أن هذا الكلام من نافلة القول ، وأنه لم يقل شيئًا جديدًا ، فهو مجرد نكرة ، شيء غير مذكور بالمرة .. لا يوجد طاووس في الدنيا يتحمل هذا .. جرب مرة وتطاوَس على طاووس (إن التركيب نفسه عصيٌّ ممتنع) .. سيدبدب على الأرض برجله ، وترتفع هامته ، وينتفش ذيله ، ويرشقك ببصره المتشامخ، ويطلق صوته الأقبح من صوت الغراب .. يطلقه وكأنه يبصق عليك ، ثم يستدير عارضًا ذيله كالمروحة ، ويطوِّحه يمينًا ويسارًا كرادارات الدفاع الجوي .. يتصيد وميض انبهارك بألوانه ، ثم يتباعد متهاديًا متبخترًا ..

لكن هذه الطريقة لا تخلو أيضًا من خطر ، فهذا المخلوق قد يكون ممن يلتذون بإيلام الغير لهم ، فيستسلم لإهاناتك مستكينًا سعيدًا ، وكأنك تدلّك له ظهره .

قدّر هاشم أن من يستمتعون بجلد ذواتهم أقل إحصائيًّا من صرعى داء العظمة ، إذن فالطريقة الثانية أكثر أمانًا ؛ لذا فالأفضل أن يعمد مباشرةً إلى إهانة الضبع ، لكن الرجل الآن ضيفنا وهاشم في جذوره صعيدي تامّ الجدعنة ؛ لذا ضحى بفارق الأمان ليرضي نخوته .

قال هاشم :

– الشخصيات العامة اللي في قمة السلطة .. الناس بتبقى حريصة انها تعرف عنها كل حاجة .

خفض الضبع صوته ، وحدق في السجادة الرخيصة التي ضاقت بحذائه الدائب الحركة ، وقال :

– ده كان زمان ، السلطة الحقيقية دلوقتي في إيديكم .. انتو أكلتوا الجو .. اتأجَّرتوا وِدان الناس .

وضحك ضحكة قصيرة لم تفلح في إخفاء حزنه الناشئ عن إدراكه لحقيقة أن ما يقوله صادقٌ تمامًا ، ورغم هذا الحزن فإن هذا لا يدل على أن امتحان هاشم له قد آتى ثماره ، بل إن العكس قد يبدو صحيحًا .. إن في صوت الضبع شيئًا من الهزيمة .

تابع هاشم الامتحان :

– وصلنا فعلًا لنسبة من القراء ، لكن الفلاحين ، ومعظم الموظفين ، والعمال .. مناطق مغلقة بالنسبة لنا .. اسمهم عندنا في الجريدة .. حريم السلطان .. ما ينكشفوش على الغريب ، والغريب يبقى احنا طبعًا .

قهقه الضبع فاهتز حتى كادت أرجل المقعد تخور وتتهاوى ، وبينما هو يضحك .. دخل صحفي شاب من العاملين بالجريدة .. دخل دون استئذان .. فهذه هي تعليمات الأستاذ هاشم .. الزملاء يدخلون مباشرةً .. هذا مكتبهم .

هذا الشاب يكتب في صفحات الرياضة ، وقد دخل وفي يده مقالة عن مباراة الأمس ، جاء ليعرضها على نائب رئيس التحرير قبل أن يرسلها إلى

قسم المراجعة اللغوية ، فهاشم يعلم أن المقصورة بمباراة الأمس كانت حبلى بأسماء لا يحبها .. وأخشى ما يخشاه أن تحمل المقالة بشأنهم إشارات ودودة .. يمكن بسهولة إساءة ترجمتها ..

قدم المقالة للأستاذ هاشم الذي دعاه إلى الجلوس بعد أن عرف الضبع به، وطبعًا لم يعرِّف هذا الأخير للشاب ، فهو أشهر من أن يعرف ، وإنه وإن كان وجوده هنا أمرًا لا يصدق ، فإن صاحبنا كان خارج صفحة الرياضة "أبيض" تمامًا ؛ لذا فإنه لم يندهش لوجود الضبع في جريدتهم ..

أثار دخول هذا الشاب فضول الضبع .. فهو لم ير من قبل مسوَّدة مقالة حقيقية .. مقالة مكتوبة دون تكليف أو توجيه أو تجييش .. وهو وإن كان لا يحب الرياضة ولا يحضر مبارياتها إلا حين تأتيه الأوامر بضرورة الحضور، فإنه رغم ذلك لم يَقْوَ على كبح رغبة قوية راودته في أن يقرأ هذه المقالة ..

قال مستأذنًا :

- تسمح لي أقراها ؟ دي مقالة رياضية.. مش كده ؟

من أين يأتي هاشم بهذه الثقة والبساطة والتلقائية ؟

ألهذا خصَّه الضبع بهذه الزيارة ؟ ..

قال هاشم :

- حتى لو كانت في نقدكم شخصيًّا .. احنا بنشتغل في النور ..

بدأ الضبع القراءة ، وخيمت على المكتب سحائب السكون والفضول والترقب .. مع قدر لا يمكن تجاهله من سرحان غير مقصود .

مع تقدم الضبع فيها أخذ وجهه يتقلص وينقبض ، ويعلوه الاشمئناط والقرف ، كان من الواضح أنه يقرأ شيئًا لا يسر ، لكن لماذا ؟

سأل الضبع صاحبنا :

- حضرتك اتخرجت من كلية إيه يا " أستاذ " ؟
- آداب قسم جغرافيا.
- وكنت بتنجح ؟
- نعم ؟!
- في الكلية.. كنت بتنجح ؟
- طبعًا ..
- في كل المواد ؟
- أيوه والله !
- وفي الثانوية العامة والإعدادية والابتدائية كانت مقررة عليكم مادة اسمها اللغة العربية ؟

أخيرًا أدرك الشاب أنه يهان ، وأن الضبع من البداية يهزأ به ، وأن الأستاذ هاشم لا يدافع عنه - فالمقالة كانت في الحقيقة .. طبقًا لرواية هاشم واعترافه.. وبألفاظه ذاتها .. بلوى من بلاوي الزمن - فتولى الشاب بنفسه رد الهجوم :

- حضرتك مشهور - وهذه هي الكلمة الوحيدة التي أسعفه بها قاموسه للتعبير عن نفوذ الرجل ومكانته ووضعه الخاص - على عيني وراسي وأهلًا وسهلًا .. لكن تهين كرامتي .. لأ ..

- يا ابني أنا والله زَعْلان عليك .. اللي في سنك على أيامنا كان أديب .. لا والله .. قبل سنك بكتير ، أنا في الإعدادية لو كنت كتبت الزبالة دي كانوا فصلوني من المدرسة .. تعرف .. أنا عندي لغاية دِلْوَقْتي في مكتبتي الجوايز اللي أخدتها لما كنت ضمن أحسن عشر قارئين في المدرسة .. أيوه ماتستغربش .. أحسن عشر قارئين .. كان أمين المكتبة يسلمنا أول السنة دفتر اسمه دفتر " ثمرة القراءة " نلخّص فيه الكتب اللي بنستعيرها من المكتبة .. يتملي الدفتر .. نديه لأمين المكتبة ويسلمنا غيره ، وهو مش بياخده يلف فيه بطاطا .. لأ .. ده بيقراه حرف حرف ويدينا عليه درجة من عشرين .. كانت منافسة حقيقية .. كان الأوائل بياخدوا جايزة من حضرة الناظر شخصيًا .. صدقني يا ابني الجوايز دي أغلى حاجة عندي لغاية دلوقتي .. أعز عندي من الدروع الفضة ، والتماثيل الكريستال ، والشهادات الفخرية اللي أخدتها بعد كده من خمسين مكان .. ما أخدتش بالك من الساعة اللي أنا لابسها دي ؟ قديمة جدًّا .. مش كده ؟ دي بقى معايا من تالتة إعدادي ! .. مش مصدق ؟ .. والله اللي باقولهولك ده حصل .. كان التلميذ اللي ياخد درجة نهائية في مادة يستلم شيك بعشرين جنيه ، ومدرس المادة ياخد شيك بنفس المبلغ .. أنا بقى عملتها في الجبر .. أغلس مادة .. وقبضت الشيك .. تصور عيِّل في إعدادي .. ما يعرفش يعني إيه شيك أصلًا .. يروح البنك بنفسه ويصرف كام ؟.. عشرين جنيه بحالها ! .. كانت تشتري بقرة وبنتها .. ثروة ! .. اشتريت لابويا جلابية صوف ، ولأمي جزمة وطرحة .. ولنفسي الساعة دي .. ولسه شغالة لغاية دلوقتي زي الساعة ! ..

سامحني يا ابني إذا كنت أهنتك ..

هل هذه الأبوة صفة أصيلة في الضبع ؟

هاشم الآن مذهول كليًّا .. هذا كلام من القلب .. وليست فيه قطرة كذب .. هل صبأ الرجل ؟ .. هل جُن ؟ .. هل هذا هو يوم العجائب ؟ حتى الشاب صاحب المقالة .. خدَّره الكلام تمامًا ، وغسل عنه الإهانة بالماء والثلج والبَرَد ، فغفر واستغفر ، ولان واستكان ، وآب مغادرًا بلا ذرة ضغينة .

أبقى هاشم المقالة معه ليراجعها على مهل.. ثم قال معلقًا على كلام الضبع وعائدًا في الوقت نفسه إلى حديثهما السابق :

- وجود واحد زي حضرتك بثقافتك دي وتاريخك ده هو أكبر العوائق بالنسبة لنا ، بِتخَلُّوا موقف حريم السلطان مبرَّر جدًّا ومنطقي جدًّا ..

قدَّر الضبع أن ما سلف من حديث كاف تمامًا كتقديم ، وأن تعقيب هاشم مدخل ممتاز يمكِّنه بسهولة من الإفصاح عما جاء من أجله ..

- إذا كنت أنا فعلًا عائق قُدّامكم بالشكل ده .. مش يبقى مكسب كبير إن العائق ده يختفي ؟

- هاتسيب الحزب ؟!

كانت نبرة السعادة التي صبغت سؤال هاشم هي أهم تتويج لنجاحات الضبع ، هذه السعادة كانت خليقة بأن تجعله يتراجع عن مشروعه ، وقد أدرك أنه لا يزال قويًّا ، فليس إذن بحاجة إلى تغيير المعسكر ، إلا أنه كان قد حزم أمتعته ، وأحرق سفنه ، وقطع - وجدانيًّا - خط الرجعة ..

- أكتر من كده شوية ..

أشرقت الحقيقة في ذهن هاشم كالصباح ، لكنه أراد انتزاع تصريح لا يحتمل تأويلًا ..

- يعني إيه ؟

- عاوزها صريحة ؟ ماشي ! انتو محتاجينلي وأنا محتاجلكم ..

* * *

إذا شاخ الحصان الميري ، فالاحتمالات عديدة ، إذا كان الحصان ذكيًّا .. تصابى أمام البيطري حتى تطول خدمته ، لكنه عما قليل مقتولٌ لا محالة ، فإذا كان حاد الذكاء - وهذا نادر- حرَّر نفسه وأفلت منطلقًا إلى الخلاء في عزلة نصف اختيارية ، يأكل يوما ويجوع يومًا .. حتى يأتيه الأجل ، أما إن كان الحصان عبقريًّا - وهذا نادر جدًّا - فإنه يلوذ بصاحب إسطبل ، يعمل عنده، يطعمه ويسقيه ، ويحميه من المصير المحتوم ..

كان صاحبنا حصانًا عبقريًّا ، لقد أدرك بحاسته الضبعية التي تشم رائحة الجيف عبر الأميال ، أن نهاية أيامه في الخدمة باتت قريبة ، رأى بوضوح أن على الساحة بهلـوانات جددًا تنافس بشراسة ، بهلوانات تطلق السهام الأولى ولا تتلكأ كما يفعل هو.. إنهم بالقياس إليه أقزام عمريًّا وفكريًّا ، لكنهم لا يزالون يزحزحونه حتى يغدو خارج الصورة تمامًا .. ثم تأتي الرصاصة إلى رأسه وهو غافلٌ كليًّا .. فيهوي ليموت ويتعفن دون أن تمتد إليه يد .. لقد شم الضبع رائحة جيفته .

لم يكن صاحب الإسطبل عبيطًا حتى يقبل حصانًا مشبوهًا كهذا دون رويّة ودراسة جدوى موسعة ؛ لذا فقد كان رد هاشم أن الأمر ليس بهذه

البساطة حتى يبت فيه للتو واللحظة .. كما أنه ليس وحده صاحب القرار في أمرٍ حيويٍّ كهذا ..

باختصار يا ضبعي العزيز .. وجودك معنا كرجلٍ منا ، يحارب قضيتنا ، ويكتب في جريدتنا ، أمرٌ لا بد من الرجوع فيه إلى مجلس الإدارة .

كان العجوز متفهمًا .. ودّع هاشم في ودٍّ .. وحرج ، وترك " لهم " مهلة يومين للرد .

* * *

لم يكن الحزب ولا الجريدة بحاجة إلى كل هذه المهلة ، فقد اجتمع القوم مساء ذات اليوم في بخت خاص بأحد ممولي الجريدة ..

دار الحوار صاخبًا وحادًّا وساخنًا ، فالحدث - إجماعًا - استثنائي .. وإذا كان رأي الأكثرية أن هذا المكسب لا يمكن إفلاته ، إلا أن الاجتماع انتهى برفض العرض .

أكد " أصحاب القرار " في الجريدة أن وجود الضبع وإن كان سيزودنا بأسلحة من العيار الثقيل ستمكننا من توجيه ضربات مؤثرة ، لكن الرد سيكون موجعًا وقد يكون قاتلًا ، فيجفف الموارد ويجمد النشاط .. ثم موقعه الجديد ! هل سيرضى بترتيب متأخر في الصفوف الوسطى ؟ أم سيطمح في مقعد ريادي.. معنا هنا مثلًا ؟ .. هذا الرجل ليس لديه الآن ما يخسره .. وأداؤه لا يمكن ضبطه على الإطلاق .. ثم .. بصراحة .. هل يمكن تصديق هذا العرض ؟

أين أمثـال جدتي وجدتك عن ذيل الكلب والزمّار الميت وكعب القحـــ.....؟

وأين تحذيرات أساتذتي وأساتذتك من خيول طروادة وجوالق الزبَّاء وولائم محمد علي ؟ ..

نعم رفضه تضحية بربح خرافي ، لكن قبوله مقامرة غير مأمونة بالمرة .. ويكفينا الآن هذا النصر ، إن مجرد إزاحة هذا المخلوق نعمة كبرى .

* * *

رفضوا العرض .. رفضوه بهدوء شديد .. دون تقديم تبريرات ..

* * *

حين بدأ الضبع يومه الجديد موطنًا نفسه على حياة جديدة في الاتجاه المعاكس ، متلكئًا في فراشه متثائبًا متمطعًا .. لم يكن يتوقع أن يأتيه اتصال هاشم حاملًا هذا الاعتذار غير المسبب ، هذا الاعتذار الذي سيجبره على بدء حملة هجوم موسعة – بدء الحملة أم الاشتراك فيها بعد أن تبدأ؟ – للرد على هذه الشائعات التي لا تتورع صحف المعارضة عن موالاة إطلاقها ، زاعمة فيها بكل وقاحة أنه زار مكتب الصحفي هاشم سليمان ! .. تصوروا!، وهاجم الحكومة بكل ضراوة ، ومدّ يده لكل أحزاب الوسط واليسار .. كذا! ، والأدهى والأمر أنهم يستشهدون على هذا الإفك بولد يكتب في صفحة الرياضة ، ولد حمار .. دماغه أستيكة .. لا يميز بين الفاعل والمفعول، ولا بين الجار والمجرور .

* * *

شاطر ومشطور

إِذا القَومُ صاموا فَعافوا الطَعامَ

وقـالوا المُحـالَ فَقَد أَفطَروا

المعري

قالت لي هذه القصة :

لا تثرثر .. احكني بسرعة ، وارحم القارئ ..

بطلي تعيس .. وأحداثي مقرفة ..

فلماذا السادية ؟

* * *

لأن صبري يشكو من مثانته .. فإنه أدمن شرب ماء الشعير الخالي من الكحول .. لكن رائحة الشعير كانت تزعج زملاءه في المجلة الفصلية غير واسعة الانتشار التي يعمل بها منذ تسع سنوات ، يكتب فيها دراسات طويلة الحجم في كل الموضوعات .

هذا الإزعاج كان مبعث راحة له .. إذ كانوا يعفونه من الجلوس إلى مكتبه غير المريح في مبنى المجلة ، فيلملم الكتب التي ستعينه في توثيق دراسته ، ويمضي متسكعًا بحثًا عن المقاهي التي تقدم ماء الشعير ساخنًا أو مثلجًا .. وبنفقة معقولة ..

جلسات القهوة كانت عند صبري أوقاتًا حلوة .. ينقل النظر فيها بين أسطر الكتب والدوريات التي وضعها على فخذه الأيسر .. وبين وجوه المارة على الرصيف العريض الذي احتلت مقاعد القهوة نصفه .. ومع ذلك

بقي فيه متَّسَع لمشاة يسيرون أزواجًا كطوابير المدارس ، محاذرين الاصطدام بضيوف القهوة .

طعام صبري غريب كشرابه .. هو لا يزور المطاعم أبدًا .. ولأنه أعزب .. فهو لا يجد من يطبخ له .. ومن ثم فقد جعل عادته أن يكون إفطاره ثمرة أو ثمرتين من فاكهة الموسم يشتريها طازجة من الفاكهي الملاصق دكانه لمبنى المجلة وينقده ثمنًا تقديريًّا لا يتكئ على وزن ولا تقييم معقول .. فتراه يومًا غابنًا ويومًا مغبونًا .. وغذاؤه على الوتيرة ذاتها ، لكن من عند الخضري الذي يجاوره في السكن ، بطاطس .. جزر .. فاصوليا .. يسلق قدرًا معقولًا منها ، دون ملح أو أي بهار .. فقط ليمونة يعصرها بيده ، إلى جوارها حزمة جرجير.. حزمة كاملة مغسولة بعناية فائقة ، وأخيرًا .. بيضة .. بيضة واحدة مسلوقة .

لن أحدثك عن عشائه .. لأنه لا يتعشى أصلًا .. لا عن كسل .. وإنما إيثارًا لنوم هادئ لا تفزعه فيه أحلام من النوع السخيف ..

جلوسه على القهوة الأقرب للمجلة كان متعذرًا لأن أسعارها تفوق حدود ماليته .. لذا تراه يقطع ثلاثة شوارع غير قصيرة ليصل إلى مقهاه المفضل ذي الأكواب النظيفة والنادل غير اللحوح في طلب البقشيش ، والجو - وهذا هو أهم ما في الأمر - غير المعبق بأدخنة البوري والتفاح لأنه مقهى لا يستقبل المدخنين ، وهذا غريب ونادر .. تمامًا كصبري وشهرته ومجلته وبابه الثابت فيها .

اشتهر صبري في المجلة ، إلى جانب اشتهاره بالشعير ، بكراهة دخان السجائر .. مجرد رائحة التبغ تؤذيه أبلغ الأذى .. فتراه يفر من أي غرفة

يلمح بها منفضة سجائر ولو كانت فارغة .. وهو إلى جانب بغضه لدخان السجائر ، لا يطيق الصوت العالي فتراه هادئًا لا تكاد تسمعه ، إذا تحدث .. فكأنه يهمس همسًا .. يكره الجعير والدوشة كره العمى .. وهذا ما جعله يعدو في الشوارع عدوًا فرارًا من أصوات نفير السيارات حتى يبلغ قهوته .. وهو في عدوه لا يخالف قواعد السير ولا ينتهك آداب المرور ..

* * *

لا يؤمن صبري بالفأل .. لو عاش في الجاهلية لكان كاهن القبيلة أبغض أهلها إليه .. هو لا يستبشر ولا يتطير .. ليس للحوادث عنده أية دلالات مستقبلية ، ومع هذا فإنه في صباح هذا اليوم شعر بأن باقي اليوم لن يكون سعيدًا ؛ إذ صكت أذنيه زغاريد الجيران في ساعات الصباح الأولى احتفاء بسبوع الابن الأصغر للأستاذ عبد الصبور ندا أمين السجل المدني الذي يستأجر الطابق الثاني في بيت صبري منذ نحو خمس سنين ، يصحب هذه الزغاريد قرعٌ شديد الوقاحة لهون نحاسي عملاق تتولاه يد كالمرزبة ليس في نيتها الاستراحة مع أن الاحتفال بدأ في أول اليوم ، والفهلوة تقتضي ادخار حامل الهون لشيء من هذا الجهد حتى تبقى في حوزته شوية حيل ينفقهم عندما يأتي المساء ، لكن العافية هبلة والجدع متشطر، ويبدو أنه -الجدع - قد بيَّت النية على شحن طاقته بين حين وآخر بسلطانيات الأرز باللبن التي ملأت أركان البيت ووُزِّعَت أكداس منها على الجيران كلهم ، باستثناء صبري الذي كان حتمًا سيكسفهم كما فعل في آخر سبوع وقع في العمارة، واعتذر عن عدم قبول نصيبه من هذا " البزرميط الحافل بالنشا " حتى لا يفسد برنامجه الغذائي ولَوْ لِيَوْمٍ واحد .

لفرط ضيق صبري بالجلبة أخذ يثب على الدرج وثبًا هربًا من صليل الألسنة في الحلوق على هذا النحو المنفِّر الذي يسمونه زغاريد ، وهذا الهبد المتصل المسلَّط على النحاس المسكين بفعل سواعد ذلك البغل الذي كان ينبغي أن يترك هذه المهمة للحريم ، فهؤلاء وإن كنَّ أيضًا لا يسترحن لحظة ، إلا أن الصوت الذي من شأن أكثرهن فَتْوَنَةً أن تحدثه ، يقلُّ – لا بد – مليون هرتز عن هذا الزلزال الذي لا يرحم .

لم تكن ضوضاء الجيران سبب امتعاضه الوحيد في صبيحة ذلك اليوم .. إنما ثنَّى ذلك تعليق الفاكهي المجاور للمجلة لافتة قبيحة تعلن أنه اليوم في "عطلة للتحسينات مع الاعتذار لزبائننا الكرام" ففقد بذلك إفطاره ، وعلم أنه سيظل طاويًا حتى يعود إلى بيته لينال طعامه من الخضري المعهود ..

إذن اليوم جوع ..

مضى إلى المجلة وأخذ الكتب التي يريدها – فمكتبته الحقيقيّة في المجلة لا في البيت – ثم انطلق إلى مقهاه يجتاز الشوارع وبه مسحة غمّ سبَّبها له هذا الصيام الإجباري ، لكنه نجح – تدريجيًّا – في استئصالها بخطته المعتادة التي لا تخيب : أجبر عقله على تذكر وجه أمه الجميل وابتسامتها الآسرة وهي توقظه في المصيف ليلحقوا مكانًا على الشطّ ، وعلى تذكر النغمشة التي دغدغته في المرة الأولى التي سمع فيها سوناتا ضوء القمر ، وأخيرًا .. على تذكر أحلى مقاطع شعر بيرم ، تلك المقاطع اللاذعة التي لا بد له كلما تذكرها أن يحلِّق مكركعًا في سماوات الضحك .

وهكذا – كما في كل مرة – استطاع صبري شطب ضباب الغم من نفسه حتى يستطيع التفكير والبحث والكتابة .

* * *

جلس صبري إلى مقعده المعتاد في قهوته المختارة .. وأخذ يفلِّي الكتابين الذين قرر أنهما مرجعه في الفصل الذي سيكتبه اليوم .. الموضوع هذه المرة في علم النفس .. المجال المفضل لصبري .. كتب فقرتين .. ثم بدأ وخز الجوع يقطع عليه تفكيره .. إنه لم يفطر .. لكن لا بأس ، سينتظر حتى يعود إلى البيت ، وحينئذٍ يسلق البطاطس وينهش الجرجير ويفتك بالبيض ويشبع .. لكن .. إن البيت سيظل مشحونًا بمهرجان الاحتفال بالسبوع ولن ينتهي هذا على الأرجح قبل العشاء ..

إذن لن يعود إلى البيت قبل انفضاض ذلك المولد .

فليجرب اليوم شيئًا مما يأكله الناس .. يأكلون هذه الساندويتشات كل يوم ولا يموتون .. بالتأكيد ليسوا مخلوقات من نوع آخر ..

هناك حجج دامغة كثيرة تبرئ الذمة .. وهذا أوانها : التغيير مطلوب ولو للأسوأ ، الضرورة لها أحكام ، الأبله فقط هو الذي لا يغير رأيه ، "هم" يسمونها وجبة سريعة ، وأنا أريد شيئًا سريعًا ، التعريف الأفضل للذكاء أنه "القدرة على التكيُّف مع الظروف الجديدة" ، هي مرّة لن تتكرر .. وأنا اليوم معذور ، القاعدة التي لا تقبل الاستثناء لم توجد بعد .. إلخ .

* * *

حدَّق صبري في القائمة الطويلة المعلقة في واجهة مدخل المطعم الذي وقع عليه اختياره .. اشترى ساندويتشًا واحدًا متوسط الحجم .. شمَّه ثلاث مرات قبل أن يبدأ في أكله .. حافل بالتوابل .. لم كل هذه التوابل ؟ إنها لاشك تخفي أصل رائحته ، لكن المطاعم كلها تفوح بهذه الروائح .. والناس تقف في طابور لا ينتهي للظفر بواحد مثله ، كأنه يوزع مجانًا .

أمره إلى الله ..

أكله في سرعة وخوف ودون أدنى متعة ..

ثم غادر عائدًا إلى المقهى ليكمل بحثه الذي يتملص منه ولا يريد أن يُكتَب .

* * *

لسائقي السيارات ولع مَرَضي بالانطلاق قبل أن تفتح الإشارة تمامًا ، فلا يفارق ذيل السيارة ذراع رجل المرور إلا بعد أن يكون الضوء الأحمر قد انبجس محذرًا لها من أية حركة ؛ لأن ضوءًا مثله على هيئة بني آدم يكون قد أينع مخضرًّا سامحًا للناس باجتياز تلك الخطوط البيضاء التي تكون السيارات قد احتلت نصفها على الأقل .

لكن المشاة أيضًا ليسوا ملائكة أولي أجنحة ، فعندهم أيضًا ذات الولع غير المبرر باختراق عرض الشارع قبل أن يكون ذلك الضوء الآدمي الأخضر قد اندلع مؤمنًا لهم العبور .

في هذه اللحظة التي يتعجل فيها السائق والماشي تقع كل المصائب .

لا تضع يدك على قلبك .. صبري بخير ، فهو لا يعبر إلا كما تقول كتيِّبات تعليم القيادة ، لكن الحادث كان من نصيب مخلوق غلبان .. كان ماشيًا هكذا في حاله ليجد نفسه على الأسفلت بنطلونه ممزق والدم يسيل من فخذه ، أما السيارة فقد كسر الحادث فانوسها الأمامي الأيسر ، وخلَّف انبعاجًا ملحوظًا في صاجها ..

هل كان المصاب غلبانًا فعلًا وماشيًا هكذا في حاله ؟ ألم يكن- في الحقيقة- مستعجلًا فوق العادة .. فلم ينظر مجرد النظر إلى الإشارة ، وهرول ليسابق السيارة التي كانت مندفعة هي الأخرى لتقطع الطريق قبل أن تصير صفارة العسكري مسموعة لا يمكن إنكار حقيقة أنها أُطْلِقت ، وقبل أن يصبح أحمر الإشارة قانيًا لا يسع أعتى المستعبطين تجاهله ؟

ولكن هل هذا محضر تحقيق ؟ لقد وقع الحادث ، وأصيب الرجل ، وتشوهت السيارة ، وانقضى الأمر .

حتى لو كان وقوع الحادث راجعًا إلى خطأ السائر على قدميه .. فإن الناس الكثيرة جدًّا التي تتحلق تلقائيًّا حول الحادث بمجرد سماع صوت المكابح الزاعق بسرسعة ضارية - سببها التيل المقلَّد المتآكل - تتعاطف بالضرورة مع الماشي لا صاحب السيارة .. باعتبار الأول طرفًا ضعيفًا ، والثاني جبارًا مفتريًّا ابن مفتريَّة ، لكن شعورهم يظل سلبيًّا دون تدخل فعلي بالإصلاح المتعقل إلاّ فيما ندر ، بل شتائم من كل جنس ولون ، وأحكام بَرْقِيَّة تلقي اللوم على أحد الطرفين دون تحقيق أو سين وجيم ، لولا بعض أولاد الحلال ممن يهوِّنون من شأن الحادث ، ويدهنونه بالمراهم المصرية المصنوعة بأسرار كهنوتية لا يمكن تعلُّمها إلا في الشارع .. مراهم من ماركة :

حصل خير ..

الحمد لله إنها جت على قد كده ..

يا راجل ما انت زي الفل أهه ..

خلا المشهد تمامًا من هؤلاء الكهنة .

كان واضحًا للجميع أن الماشي ابن ستين في سبعين .. وأنه يستاهل ما جرى له .. لكنه مصاب ، ودمه سايح ، وبنطلونه مقطوع ..

وكان واضحًا أيضًا أن صاحب السيارة مدركٌ لهذا كله ، وأنه لن يسمح لأي من الأوباش المتجمعين بأن يتنمَّر عليه ، وَيُنَصِّب نفسه مدافعًا عن المصاب يتحدث باسمه وينافح عن حقوقه ، فقد كان هذا يلملم مَزْقَ بنطلونه ويستعد للانسحاب بعد أن قرأ في عيون كل الناس أنهم - رغم تعاطفهم الكامل - يعرفون تمامًا أنه غلطان .. و" الغلط راكبه من ساسه لراسه كمان ".

لكن إذا غاب الكهنة .. انتشى الأبالسة .

وفي ثوان معدودة انطلقت فحَّات سُفْلِيَّة كوخز الإبر : كان هايموته !، جبروت يا أخي ، ولا حتى طبطب عليه .. بدل مايوديه مستشفى واقف يبحلقله زي مايكون هياكله ، هايروَّح إزاي بهدومه كده ؟ على الأقل يوصله البيت ، والله لو مكانه ما سايبه إلا في القسم ! ، والتاني ماشي مش باصص .. تقول واكل داتورة ! طب ده الواجب يصلح هوه العربية .. ..

اندلعت الحريقة ، وبدلًا من أن يمضي كلٌّ لحال سبيله ، تقوّى الرجلان بما سمعاه من تعليقات ، وومضت في أذن الماشي أحلام بتعويض محترم سيدفعه صاحب السيارة ورجله فوق رقبته بعد أن يثبت محضر الشرطة والتقرير الطبي هذه الإصابات الخطيرة ، يا فرج الله ! ابن عمته هو طبيب الاستقبال في المستشفى الأقرب إلى موقع الحادث ، وسيخدمه - لا ريب - في التقرير.

أليس للراكب رب يسعفه بالفرج أيضًا ؟ أليس معاون مباحث القسم من شلة أخيه من أيام ثانوي ؟ وسيكتب له المحضر على النحو الذي يشتهيه،

بل وسيثبت له فيه أيضًا – إن شاء – حقه في إلزام ذلك الأعمى بنفقات السمكرة .

انطلقت التهديدات واللعنات ، وحمي الموقف ، واشتد فضول الناس دون أي جهد حقيقي للتهدئة .

ليس من عادة صبري أن يتحلق حول مثل هذه الحوادث .. لا وقت لديه لذلك .. لكنه هذه المرة .. وجد نفسه تمامًا وسط الجمع .. يسمع السباب المبتكر المتبادل بين الطرفين والمصحوب دائمًا بأصوات غير مهذبة صادرة من الحلوق بغباء واندفاع ..

صبري لم يفض خناقة في حياته .

ماله والخناقات ؟

التخليص بين المتعاركين ؟ ..

طول عمره يعتبره أسوأ تطوع عرفه البشر في تاريخهم الطويل ..

هذا الغضب المجنون يجعل الواحد في أسوأ حالاته فلا يستجيب حتى لأبيه ، ثم يأتي غريبٌ لا يعرف عن الموضوع شيئًا ويحسب نفسه هرم ابن سنان ، وينثر كلامًا أهبل على الخصوم ، قمة الفضول والغرور وسوء التقدير ! ألا يخشى هذا الحشري على نفسه من مصير الدكتور عويس ذلك البروفيسور المبتلى بشهوة إصلاح العالم ، والذي كلما بدا له أن يتدخل فارضًا دوره الإصلاحي دهمته لكمة استراتيجية جندلته تمامًا فيفتح الباب لتريقة كل خلق الله ؟

لكن صبري من أحفاد مالك الحزين ، يقذف كل أسبوع بدراسة ألمعية في الاجتماع والتاريخ وعلم النفس والنقد الأدبي ، وينثر في كل قعدة أو ندوة

أو حتى مكالمة تليفون نصائح لقمانية لا تخيب ، لكنه ما إن ينغمس بشحمه ولحمه في الموقف .. حتى يفقد حكمته تمامًا ، ويتورط كالعبيط .. مقترفًا دومًا عكس ما يدعو له من ضبط النفس ، وإعلاء سلطان العقل ، وإذكاء روح التسامح .. وكل هذه الوصايا المدرسية .

وهكذا .. اعتبر أن قيامه هذا الشهر بكتابة دراسة في علم النفس – كانت عن سيكولوجية المُطَلَّقات – لم يأت أبدًا بالصدفة ، كل شيء في هذه الدنيا بحساب دقيق ، حتى الحوادث ، والطاولة ، ونوبات العطس .. لا تأتي دون قصد ، أبدًا لا يمكن لها أن تأتي اعتباطًا .

* * *

قال صبري للجريح الذي كان الأعلى صوتًا منذ بدأت المعركة :

– يا أستاذ .. المفروض حجم الغضب يكون ملائم لأهمية الحدث اللي بنواجهه ..

نظر إليه الرجل باحتقار ولم يرد ، ثم واصل عراكه مع السائق الذي كان قد نزل من السيارة واستعد لنزال بالأيدي بشَّرت به سخونة الموقف ..

عاود صبري :

– الغضب يا أخي عمره ما كان بدون سبب ، لكن نادر جدًّا إن السبب ده يكون وجيه ..

صرخ فيه الرجل :

– اخرس انت .

شعر صبري بألم في معدته .. قرقرة شبيهة بصوت الشيشة التي يكرهها ، وقرصات جعلت أمعاءه تتلوَّى حقيقةً لا مجازًا ، قد يكون ذلك من امتهان كرامته ، فهذه هي المرة الأولى في حياته التي يتبعثر فيها احترامه علنًا على هذا النحو ، وربما كان الوجع من أثر الطعام الذي أكله ، فهي المرة الأولى .. ربما من عشر سنين .. التي يقترف فيها تناول هذه الأشياء التي يأكلها الناس ، أجّل مسألة بحث سبب ألم المعدة .. ورجع إلى التلطيف :

- يا سيدي الحكاية بسيطة ، ليه الغيظ ده كله ؟ احتضان الغضب بيغذي شعلته .. واخد بالك ؟

بفروغ صبر صرخ الرجل :

- قلت لك اخرس انت ..

تزايد شعور صبري بالألم في معدته ، هذا ألم جديد عليه تمامًا .. لم يجرِّبه من قبل .. لكنه وقد بدأ جهود السلام ، فإنه لم يشأ أن يوقفها ..

قال :

- يا أستاذ كلنا عارفين إن الغضب بسبب طبيعته الإغوائية .. ممكن يغري بتفريغه علشان نشعر بالرضا .. لكن عدم كظم الغضب مش معناه الاستسلام له .

ضاق صبر الرجل .. وانفجر غيظه من مقاطعات صبري له .. وبدلًا من أن يبدأ عراك الأيدي مع السائق ، فاجأ صبري بصفعة مدوية نالت من خده وأذنه ورقبته .. إذ كان كف الرجل كبيرًا بكل المقاييس ..

كانت جموع الحاضرين - بصراحة - قد استفزها صبري بتفلسفه وسفسطته وكلامه المجعلص الذي لا يفهمه إلا الأفنديات ، كلامه اللاوندي الذي لم يتوان عن قذف الجدع المتعور به ، وكأن أذن هذا المسكين .. هكذا .. متاحة مستباحة ، لكنها رغم هذا الاستفزاز لم تتصور للحظة واحدة أن يناله هذا الجزاء .

في اللحظة التي تحول فيها غيظ الجميع من صبري إلى إشفاق عليه بسبب القلم المحترم الذي أكله ظلمًا ، في هذه اللحظة كان صبري قد احمرّ وجهه بشكل منذر بالخطر ، وجحظت عيناه ، وأمسك بطنه ، وفقد السيطرة تمامًا .. وبدلًا من أن يرد على الرجل الصفعة بمثليها .. فتح فمه إلى أقصى درجة وأخذ يقيء في كل اتجاه ..

أصاب الجميع في ملابسهم ووجوهم بقطع طعام متناثرة حولتها عصارة معدة صبري إلى لون رهيب .. ورائحة مرعبة .

لون ورائحة كانا كفيلين تمامًا بإنهاء المعركة ، وانصراف الناس ، كل الناس .

* * *

السـيل

وما أدراك ما السيلُ ؟

وما غـرَّك بالبحـر ؟

ابن الرومي

ليس في هذا البلد عمدة .. أي والله ليس فيها عمدة .. وعيال البلاد المجاورة يعيِّرون أبناء هذا البلد كل صباح .. انتم بلدكم دي بلد ؟

انتم شحاتين .. بلد بلا عمدة ! ..

هكذا كتب على تلامذة نجع فرحات تحمُّل الإهانات وهُم في طريقهم إلى مدرسة البندر متشعبطين في سيارة ربع نقل وعلى الواحد منهم أن يمسك بقائم السيارة بيد ويحتضن كتبه بأخرى .. ويجهز - علاوة على ذلك - لسانه للرد على الإهانات القومية الفجَّة من ركاب السيارة من البلاد الأخرى الذين تلتقطهم السيارة وهي نصف سائرة .. نصف ماشية ، بحيث لا بد إذا أردت أن تركب .. أن تمد ، بل ترمح ، ثم تحزق وتقفز ، وبأمتن أعصاب بالقائم تتشبث .. وإلا وقعت ، وشرب التراب من دمك فلا أسفلت هنا .

* * *

هذا البلد المحندق الذي لا يزيد زمامه عن سبعين فدانًا ، ولا يختلف شكل أرضه - إذا عاينته من أعلى الجبل أو من نافذة طائرة الرش - عن شكل قرن الجاموسة .. بوق تام الانحناء ، لا يزيد عدد سكانه على ألف نسمة ، هذا إذا أخذنا في الحسبان .. شبابه المبعثرين في مزارع المانجو في الإسماعيلية ، وبواخر السياحة في أسوان ، ومشاريع البناء التي لا تتوقف لحظة واحدة في المدن الجديدة التي تطوِّق القاهرة .

هذا البلد كان له عمدة كسائر البلاد .. لكن السيل سامحه الله نزل من الجبل الذي يحضن البلد دون عطف .. نزل جبارًا عتيًّا ، نزل " يكسح البلاد أمامه " ، نزل مدمرًا بذاته .. بهائه فقط دون أدنى حاجة إلى جلمود صخر يحطه من علٍ أو أشياء من هذا القبيل ، جاء منقضًّا مجنونًا "يهب هبوبًا"، اندفع في عربدة جعلت البيوت الطينية تذوب كالشيكولاتة إذا مستها الشمس ، ومات أكثر الزرع .. ونفق نصف البهائم ، حتى أن رائحة الجيف ظلت عاما كاملًا مستوطنة خياشيم الناس .. لم تصمد إلاّ بيوت الطوب الأحمر ، والحجر البلوك ، والأسمنت .. كتبت الصحف عن هذا السيل .. وتبرع بعض أهل الخير لإعادة الإعمار .. لكن التبرعات تبخرت ، ولا يدري الناس في جيب من استقرت .

كان بيت العمدة من الحجر والأسمنت لذا فإنه لم يهدم ، وبهائمه كانت في حصن حصين ، في أعلى نقطة بالبلد ، كمراصد الزلازل .. أكوام من السباخ تعلوها تعريشة من الجريد وحطب السمسم لتصنع ظلًا كثيفًا تخور تحته ثيران العمدة بين حين وآخر ، تسلي نفسها بعد أن شبعت من التبن الغارق بالكُسْب والنخالة والذي لا تنفد منه مذاود الزريبة ساعة من نهار .

مالية العمدة لم تتأثر إذن ، وهذا خبر ممتاز .. فالناس تحب هذا الرجل .. فهو - والحق يقال - كريم ، والكرم بلسم سحري يجعلك تحب الشخص الكريم حتى وإن كنت لا تعرفه ولن يحدث لك أن تدخل بيته لتستفيد من هذا الكرم ، وفي المقابل تكره البخيل مع أنك لم ولن تطلب منه شيئًا ، بل إنك ربما لا تعرف حتى شكله ، أو هيئته ، أو مكان بيته ، لكن ما إن تأتي سيرته حتى تقول : يا شيخ خليه يغور !

من منهم لم يسلفه العمدة في يوليو وأغسطس وسبتمبر .. أشهُر القحط والجوع والإفلاس الدوري المتكرر ؟ تلك الأيام العجاف التي تَرْفَعُ فيها البهائم - تُمْسِك عن إدرار اللبن - حتى يشحت الناس العيش وتصعب حالتهم على الكافر .. من منهم لم يرسل له سرًّا أكوام البتاو ومقاطف الكِشك؟ لم ينسهم العمدة مطلقًا في تلك الأيام ، كانت شهامته فوق الحدود المعقولة .

لكن علاقته بالناس تبدلت بعد وقوع السيل.. حال الناس أصبح غريبًا.

إذا عقد مجلس صلح وأصدر العمدة قرارًا فإن الناس لا تنفِّذه ، جحود استثنائي ، ونكران للجميل ليس له نظير ، لكن السيل هو السبب ، أفسد هذا الملعون أخلاق الناس ؛ إذ لم يعد لدى أكثرهم ما يخسره ، لقد أصبح البيات في حبس المركز أحلى ألف مرة من البقاء في عشش البوص التي نصبوها عند رؤوس الغيطان بعد أن اندثرت بيوتهم .

ولأن النشوز يغري بالتقليد .. فإن الناس أدمنوا المكابرة .. وفَشَت النزاعات بينهم ، وتكررت الحوادث التي أُعْلِنَ فيها التمرد صراحة ، وبدأت تنطلق عبارات لم تسمعها البلد من قبل .. اشكيني في النقطة .. خلي المأمور ينفعك .. سنة حبس ؟ .. طظ ! .. دي السنة ماتْدَوِّبْش طاقِيَّة ..

جهود الصلح باءت كلها بفشل ذريع ، وكثرت المحاضر الرسمية والشكاوى ، وبعد أن كانت لا تتجاوز الثلاثة كل شهر .. صارت بالعشرات، والنقطة .. بعد أن كان لا يرتادها إلا الأوباش ، أصبح المخبرون والغَفَر يجرجرون إليها كل يوم ناسًا محترمة .. بهدلها السيل آخر بهدلة .

أصبحت سمعة العمدة في التراب .. يمسح المأمور كل أسبوع بكرامته الأرض : مش عـارف تحكم البلد ؟ بلد قد كف الإيد زي نزلة فرحـات - يقصد نجع - ويجيلي منها كل يوم وجع دماغ ؟ ده أنا لو حطيت مكانك واحدة سِتْ كانِت نِفْعِت .. كل ما بُرْص من دول يعوَّر التاني نفتح إحنا محضر وتبقى قضية ؟ أُمَّال لازمتك إيه ؟

ويخرج العمدة مقلوب السحنة .. مهمومًا .. مهانًا .. يكلم نفسه ..

أصغر مني بعشرين سنة ويشتمني كما يفعل الشيخ عبد الصمد مع العيال في الكتاب ؟ ملعون أبوها شغلانة .. والله لولا وارثها عن أبويا وسيدي لكنت سبِّيت ملة جدوده وسبتهاله مخضّرة ، ويورِّيني هايجيب مين يعرف يلمُّهم بدالي بعد ما بقيوا مجانين .. مجانين رسمي .

أنا نفسي ما عدت قادرًا على شَكْمِهِم ، أين أيام أبي وأجدادي حين كان أتخن تخين لا يجرؤ على المرور أمام الدوار بركوبته ؟ ، أيام لم يكن يسع الواحد منهم أن يَلِجَ المندرة عندنا دون أن يخلع نعليه .. أيام كان كلامنا حكم محكمة .. مقدسًا كأنه البخاري .. محفوظًا غيبًا كأنه دلائل الخيرات ؟ .. من في جدودي مثلي عديم الوقار ؟ .. أين اقتداري وبطشي وهيبتي واعتباري ؟

لكن أكيد فيه حل يا عمدة .. أكيد .

* * *

قطع منصور إصبع خليل بالشرشرة عندما تنازعا على حدود أرضهما التي طمرها السيل فغابت المعالم وتدخل الشيطان .. قضى العمدة لخليل بنصف قيراط تعويضًا عن الإصبع المقطوعة .. لكن منصورًا لم يدفع .. بل إنه جاهر بالعصيان وصرخ في وجه العمدة : إنتم تعرفوا أرضي أحسن مني؟

والله ما ادفع .. أنا فاكر كويس مكان سيف الحد .. نص قيراط إيه ؟! أنا لاقي آكل؟ عليَّ الطلاق ما انا دافع ..

كيف واتت منصورًا كلُّ هذه الشجاعة ؟ أنسي أن أباه كان أحقر مزيِّن في البلد ، وأنه لم يدخل زمرة المُلاك إلا بطلوع الروح بعد أن لحس التراب وجاع وتعرى ، ومد يده باللصوصية مرة ، وبالتسول مرات ؟ ، أيُنكر أن أخته سعدية وضعت رأسه ورأس أهله في الطين يوم ضبطوها في القصب مع لملوم سمسار البهائم ؟

لكن جاء الحل ..

جاء بسيطًا وحكيمًا ..

قالوها من زمان : هين قرشك ولا تهين نفسك ..

باع العمدة نصف قيراط من أرضه هو .. ودفعها لمنصور سرًّا حتى يؤديها لخليل أمام الناس .. فتبقى الهيبة ويأخذ خليل حقه .. أما يمين الطلاق .. فصيام ثلاثة أيام ليس شيئًا عسيرًا يا منصور ما انتم كده كده صايمين وجعانين ..

* * *

ليس في نجع فرحات أسرار .. وإلّا كيف عرفت أنا هذه الحكاية ؟ .. ذاع السرّ ولم يعد يتهامس به أحد ، صحيح أن البلاد الأخرى لم تعرف شيئًا عن الموضوع ، وصحيح أيضًا أن أحدًا لم يظهر للعمدة أبدًا أنه عرف ، لكن داخل البلد .. في دروب وسكك وغيطان نجع فرحات .. الكل عرف .. الكبير والصغير ، النساء والرجال ، المتعلمون والبصمجية .. حتى مرتضى العبيط

الذي يأكل الطين ويمص سيقان الذرة بحسبانها قصبًا ويمتطيها بحسبانها جحوشًا ويلف بها كل البلد ، ويوشوش المعيز والخرفان بلغته المفرومة التي تفطس من الضحك .. حتى مرتضى هذا .. عرف .

* * *

النهاردة يومي يا عبد المنعم .. لا .. ده يومي يا محفوظ أنا اللي هاسقي .. انت كداب .. أهو انته اللي ابن ستين .. و.. طاخ .. طارت عين حمار محفوظ لما سقطت الهراوة عليها وأخطأت كتف محفوظ .. قدر ولطف .. لو طالت الهراوة الكتف لأصبح محفوظ مشلولًا .. لكن حماره الآن يسير مواربًا .. وينحرف نحو الترعة ، وإذا أهاجته أنثى .. فإنه يضل طريقه في المعاشرة ، بل إنه ما عاد يميز بين الذكر والأنثى ، فأضحت آذانه تشرئب إذا رأت جحوشًا كاملة الفحولة .

أمسى خبر شذوذ حمار محفوظ آخر نكتة في البلد .. إذن إذا بيع .. فإنه لن يساوي شيئًا .. فمن هو هذا الأهبل الذي يشتري حمارًا أعور ، وسيئ الخلق أيضًا ؟

قام العمدة بدور الأهبل واشترى الحمار بثمن أغلى من ثمنه لو كان مفتَّحا وستة على ستة ..

في كل يوم تقع عركة أو ينشب نزاع لا يخجل الناس من تصعيد الخلاف حتى يبلغ حد أن يصيب بعضهم بعضًا وفي هراواتهم ومناجلهم مكرٌ كمكرهم .. مكرٌ يستحثهم على التعدّي والفجور .. ففي النهاية سيدفع العمدة ثمن البهيمة المسمومة أو الغيط المحروق أو دية الذراع المكسور .. سيدفعها " سرًّا " مثلما فعل مع إصبع منصور .. وحمار محفوظ .. ولكن البلد

كلها تعلم أنه هو الذي يبيع ويدفع ، وما الذي يمنعه من الدفع ؟ .. هل شَقِيَ مثلنا في هذه الأرض أو عرق فيها ؟ ألم تأته مرتاحة .. على الطبطاب .. طينتها زرقا .. وجنب المُسْقَى في أحسن مكان ؟ ثم .. بالعربي كده .. ألا يستفيد هو الآخر من هذه البيوع ؟ .. وهل العمودية " شويَّة " ؟ أم يريد أن يتسلطن في المندرة ويتمَرْيس علينا بلُّوشي ؟

* * *

لكن أرض العمدة انطلقت في تناقصها لا يوقفها شيء حتى اختل النِّصَاب ، لقد ورثها أفدنةً تسعةً لا يملك أحدٌ في بلدهم الفقير الصغير ربعها ولا عشرها ، أما الآن فهي أربعة ونصف .. في الحقيقة ليس نصفًا كاملًا ، بل عشرة قراريط بما في ذلك الزريبة/ القلعة التي تشغل قيراطًا كاملًا، والتي لم يعد فيها ، بفضل مشروع العمدة الهادف إلى حفظ الهيبة ، إلا ثور واحد ، جعلته الوحدة عصبيًّا جدًّا ، فأصبح يعاف العلف ، فلا تنفك أسنانه البرتقالية القاسية تلوك الفراغ وتَجْتَرُّ الأثير في زهقٍ ظاهر ، وما عاد يخور في مَرْبَطِه في دلال وافتتان كما كان يفعل أيام ما قبل السيل ، بل صار يزَنْخِر ، وينْفُر ، ويبعثر التبن ، وينطح قوائم الزريبة .

* * *

جميع عقود البيع عرفية ، والصفقات كلها تمت دون أن تثبت في سجلات الجمعية الزراعية ؛ فالدار أمان .. والعمدة ابن أصول لا يرجع في كلامه ولو شنقوه ، ولماذا يرفضون له هذا الطلب ؟ وما المشكلة في أن تبقى الحيازة في الجمعية باسمه ؟ أليس من حق العمدة أن يبقى أمام المركز والمديرية مالكًا – على الورق الرسمي – للنصاب اللازم للاستمرار في منصب العمودية ؟

هذا النصاب الذي لم يفرضه نص أو لائحة بل اعتبرته إحدى اللجان حدًّا أدنى يفصل بين أصحاب اليسار المؤهلين للعمودية وبين سواهم من "الناس" فاعتمدته كل اللجان التي تلتها في المديرية كعرف غير قابل للخرق .

ألن تكسر الداخلية وراءه ألف قُلَّة إذا علمت أن حيازته نقصت عن الحد المفروض ؟

أليس جميلًا أن عاد المأمور إلى احترامه بعد أن لطَّخ له كرامته التي هي في النهاية من كرامة البلد ؟ .. وما دام العمدة " يراضي " كل المتعاركين فما لزوم الجمعية والمركز والمأمور ؟

* * *

لكن الحلول البسيطة الحكيمة كثيرًا ما تخفي خوازيق لا تظهر على السطح إلا حين تصل سعادتنا بهذه الحلول واطمئناننا بسببها إلى الذروة .. حين يصبح التراجع مستحيلًا ، والموقف غير قابل للترقيع .

كيف علم المأمور ، ورئيس المباحث ، ولجنة العمد والمشايخ بمديرية الأمن بكل هذه التمثيلية ؟ كيف وصلتهم صور عقود بيع أراضي العمدة التي ورثها كابرًا عن كابر ؟ من الذي حكى لهم كل هذه الأسرار ورفع الغطاء وكشف المخبوء ؟ من الذي كان سببًا في أن ترفض لجنة العُمَد التجديد للرجل فتركته عريانًا بلا سلطة ؟ وتركت البلد عريانة بلا عمدة ؟

كل هذه الأسئلة لا يعرفها تلامذة نجع فرحات ، بل يعرفون فقط أن عليهم تحمل الإهانات كل صباح حين يركبون العربة الربع نقل .. يلتصقون بقائمها بيد .. ويحتضنون كتبهم باليد الأخرى .

القصب الأخضر

فَلَو يَعلَـمُ ما فِي الحُـ ـبِّ مَن عابَ لَما عـابا
ولَو تَتْفُـلُ فِي البَحـرِ لأُلْفِي البَحْرَ قَد طابا
ولَو أَبصَـرَها طِفـلٌ صَغيرُ السِّنِّ ما شابا

العباس بن الأحنف

" العيال الإرهابيين مستخبِّيين عند عم الحاج حلمي ! .. شفتهم .. والله العظيم شفتهم ! .. دقونهم شبر .. وبنادقهم زي بتاعة الجيش .. وعليَّ الحرام شفتهم ! ".

علام أبو مرسي الذي لا تَنْبَلّ في حنكه فولة .. هذا الرغَّاء الذي يبعبع بكل ما يسمعه كطفل حديث النطق .. فضح الحاج حلمي .. وخرب بيته أيضًا .. غدًا تأتي لواري الحكومة .. محفوفة بمدرعات أمن الدولة ، وتكسر قصب الحاج حلمي .. تكسره عودًا عودًا .. وهو – القصب – أخضر لا يزال .. أخضر لم تتسلل الصفرة إلى زعازيعه .. ولم تصبغ الحمرة الطوبِيَّة أعواده .. خراب بيوت استثنائي ! لو أرادت القواميس شرح كلمة " خراب " لكفاها وصف هذا الاجتياح المدرع .. كفاها جدًّا ..

* * *

حسين .. الابن الوحيد للحاج حلمي .. يطرق عامه الثالث عشر .. ولا يزال مع ذلك في الابتدائية ، في السنة الأخيرة ، لكنه لا يبذل مجهودًا معقولًا يناسب المسئولية الجبارة الملقاة على عاتقه مع أنها – الابتدائية – شهادة .. مرحلة فاصلة ، تنقل صاحبها نقلة هائلة ، فيرتدي بدلًا من المريلة بنطلونًا ، ويشترك مع " الكبار " في دوري المدرسة فيحصل – إن فاز فريقه – على حذاء رياضي أو كرة .. أو – إن كانت ماليات المدرسة منحطة –

يظفر بمقلمة أو علبة أدوات هندسية ذات برجل معدني يستعصي على الفتح، ويصلح نصله في التلويح بطعنات غير قابلة للشفاء .

كل هذه الكنوز يفلتها حسين .. يدع لها الفرصة كاملة في أن تتأخر .. أو حتى لا تجيء بالمرة .. ببساطة كان الولد يسمح لفورات المراهقة أن تناوشه ، ويتركها تقوده عن طيب خاطر .. كان يتسرب من حصص الحساب واللغة ليتحين الفرص الذهبية التي لا تتكرر كثيرًا .. تلك التي لا تسنح إلا حين يتجرأ تيار النيل على جرف كافولة أو جلابية أو لباس ليفلت من أيدي امرأة ثلاثينية شاهقة البياض تقرفصت على الشط تغسله وتفركه وتمرشه .. فإن غفلت عنه لحظة وخطفه منها التيار هبَّت مشمِّرة كبلقيس ، كاشفة عن مساحات لم يرها من قبل إلا زوجها والداية ، حينئذٍ يتأهب حسين للبحلقة، وتعلن حواسه كلها حالة الاستعداد القصوى لرصد هذا المشهد النادر التكرار ، فيعلن توقف الزمن ، ويضخ القلب كل ما فيه من دماء لتصل إلى الرأس بسرعة مذهلة ، حتى تطن الأذن ، ويتدلى الفك ، وتحمر الوجنات ، وينضح الجبين عرقًا دافئًا متصببًا متحاشيًا التحدر على الأجفان ، متوسِّلًا للعينين ألا تطرف أهدابهما فيضيع كل شيء ..

ولأن هذه المشاهد الخاطفة لا تسنح كثيرًا ، ويتطلب اقتناصها – بالتالي – صبرًا استثنائيًّا ، فإن حسينًا ينبذ مناهج الرياضيات والنحو ليبقى بالساعات قريبًا من النهر بانتظار أفواج ستات البيوت وقد جئن مثرثرات بشكايات من الحجم المروِّع للخَلَقَات (الملابس) المنتظر منهن غسلها على ماء النيل الجاري .. الذي يؤكدن أنه – في قدرته على إزالة البقع – أجدى ألف مرة من ماء الحنفية ، وفوق ذلك هو مجاني لا يكلف قرشًا واحدًا ، والحكاوي عنده حلوة .. لا يعيب الغسل هنا إلا بصبصة هذا الولد علينا .. بالغ بدري وعينه قبيحة.

* * *

الحاج حلمي .. مزارع شاطر .. آخر شطارة .. إنه من سلالة عفاريت .. يحفظون طلاسم الأرض ، ووحدهم يفكون ألغازها .. يعرفون متى يكون العزق ، وأين يحسن البذر ، وكيف يفلح السقي .. يأتون كل إجراء في أوانه .. بالضبط في أوانه .. لا يعرفون المصادفات ..

الحاج حلمي ينفي بشدَّة إمكان تحصيل شرف الفلاحة بالساهل حتى بعد الصبر وطول البال وحني الظهر على البذر والعزق آلاف الأيام .. كل هذا عند أبي حسين لا يكفي .. إنها يا مولانا " حاجة " في الدم ..

يؤكد الحاج حلمي بحتم علمي رصين أن الفلاح- كالشاعر- يولد ولا يصنع ، ودم الحاج حلمي به أطنان من هذه " الحاجة " .. ويبدو أن الحاج حلمي عنده في دمه " حاجات " كثيرة .. فهو يضارب في السماد وعلف البهائم بمهارة الحواة ، ويدير مناحل العسل الجبلي ذي الأسعار الفلكية باقتدار خبراء الطب البديل ، ويضطلع بمهام تسمين العجول وتفريخ الكتاكيت بحنكة بيطرية نادرة ، وحتى المزارع السمكية التي تتطلب تفرغًا كاملًا وعناية خاصة لا يسمح الحاج لأرباحها أن تتخطاه بل هو يشرف بنفسه عليها ، فيتسلم الزرِّيعة ، ويحضر إجراءات الوزن ، وشراء الثلج ، وتسليم الطوالي ، حتى إن من يصافحه لا تجد أنفه صعوبة في ملاحظة أن في يديه شيئًا من الزفارة .

وتفتح الدنيا أذرعها لأحضان الحاج ، فيترهل رصيده ، وتتورد وجناته، وتسمن أثداؤه ، وأما العباءات الامبريال التي يفخر بها دولابه .. فيصرن خمسًا ، لا شيء يعكنن مزاجه إلا ابنه حسين .. هذا الصبي البالغ بدري وصوته جاعورة وشاربه غيط ، ومع ذلك .. في الابتدائية لا يزال .. وعلى رأسنا تصب الفضائح بسبب بصبصته .. نجس كأخواله ..

* * *

علام أبو مرسي.. خالي شغل ..
خالي شغل ؟ ..
عنده في الحقيقة – أحيانًا – شغل ..

إنه – أولًا – يقدم الشاي متطوعًا لزبائن قهوة بِراهيم (إبراهيم) مناديًا على الطلبات بنغمة ممطوطة كقهوجيَّة البندر .. فيوفر على صاحب القهوة والعامل الوحيد فيها – عم إبراهيم – عناء الدوران على مقاعد الليف لتلقي الطلبات ، وضبط النارجيلات ، والحفاظ على الاشتعال الأبدي لراكية النار فلا يقع أبدًا أن يطلب زبون ولعة ولا يجدها ..

ولأن صاحب القهوة لم يطلب من مرسي أبدًا أية مساعدة من أي نوع .. فإن مقابل هذه الخدمات – التي لا يمكن في الوقت نفسه أن تكون بالمجان– تم التراضي على أن يتلقاه مرسي عيْنًا .. فلوس لأ .. مشاريب ماشي .. وما دمنا سنشرب فليكن كاكاوًا يا عم ابراهيم .. المشروب المفضل عند علام .. كوبة ملآنة يُعدُّها بنفسه تسح سحًّا .. وفوق هذا .. ملتهبة .. تغلي لا تزال .. ومع ذلك .. يصبُّها علام في خَشْمِه على شفطتين .. فقط شفطتين ..

ثم إنه – ثانيًا – يلملم أكواز الذرة وسنابل القمح التي نسيها أصحابها عند الحصاد ويبيعها إن بلغت رُبْعًا (نصف كيلة) ، ويشتري دخانًا يسحبه أنفاسًا طويلة أمام كوخه الذي شيده بنفسه من البوص والجريد ، والذي كتب عليه أنه يجوع فيه ويعرى ، وأنه يظمأ فيه ويضحى ، تعريشة بلا سقف أو نوافذ .. فقط ثلاثة جدران مائلة ، وباب قصير مهاود ، يمكن لرضيع يحبو أن يفتحه ، ويسهل على نسمة صيفية هزيلة أن تغلقه ... مهما بالغنا في التساهل وشطح بنا التهويل .. فإنا لن نغامر أبدًا بإطلاق وصف "بيت" عليه .. حتى أكثر عيال البلد سذاجة كفت تمامًا عن الاختباء فيه أثناء لعب الاستغماية .

فإذا زهق علام من الدخان ، وبقي في جيبه بعض الفكة ، غامر بالتفكير في تحقيق أمنيته التي لا يتخلى خياله عنها ، بينما يراها ضميره ترفًا لا يليق بهلفوت مثله أن ينعم به ، وإلا عاقبه الزمان على هذا البطر .. أمنيته التي لا تتحقق أبدًا : أن ينجعص على أوْجَه مقعد في قهوة براهيم ويطلب بكل جليطة كاكاوًا – أيضًا – مرة واثنتين وثلاث .. ليقدمه له إبراهيم بنفسه .. وحين لا يصبح في جوفه متسع للمزيد ، يضع كالباشا ساقه على أختها .. ويسبل جفنيه .. وينام .. ويشخر ..

هل تتاح لعلام ، ولو لمرة واحدة في حياته ، فرصة تحقيق هذه الأمنية؟

وأخيرًا .. عمله الأكثر سهولة .. والأعلى عائدًا ..

عمل ؟ .. هل المسامرة عمل ؟.. هل المنادمة شغل ؟

هل يمكن اعتبار تبديد ساعات زهق الحاج حلمي بنمائم البلد ، وفضائح نسوانها ، وخناقات رجالها .. وظيفة محترمة أو حتى غير محترمة ؟

ولم لا ؟ .. علام يعتبرها كذلك ويؤيده الحاج حلمي بالروح والدم .. فهي شغلانة جميلة جدًّا .. فيها تبادل منافع .. تجارة مشروعة .. تعطيني ضحكًا .. أطعمك عدسًا .. خَبَر ببراد شاي ، وفضيحة لقاء حجر معسل ..

* * *

حسين يواصل التصعيد وصب الزيت على النار .. مش جايبها لبر ..

الفرجة عن بعد – إذا كانت المسافة معقولة – لا تثير أدنى اعتراض .. أما البحلقة على مسافة شبرين .. فقلة أدب لا تسكت عنها إلا حرمة قليلة أدب .. وحتى هذه لا تسكت ، فماذا يرجى من هذا العيِّل ؟ جرسة وببلاش ؟

زادت مشاكل هذا الولد .. فانهمرت خيزرانات الحاج حلمي عليه .. ومعها دعواته .. إلهي يفرمك قَطْر .. إلهي يدوسك جرَّار.. يا رب تاكلك مقطورة .. واد وِشُّه فقر .. يوم ما اتولد ضربوا السادات .. الراجل السكرة .. كان جبينه منور بالزبيبة .. وأيامه كانت نغنغة .. لسه ها نطاهره .. أمه ماتت من غير حتى أنفلونزا .. في عز شبابها .. والله أنا خايف يوم ما ياخد الابتدائية يجيني عزرائيل .. خَلِّيه إن شا الله ما فلح ..

في الحقيقة أمه ليست المرأة الوحيدة التي ظهرت واختفت من حياته بحادث فجائي غامض ، فالنسوة اللائي تناوبن كفالة حسين بعد أن ماتت أمه تعرضن جميعًا لحوادث بقيت طويلًا دون تفسير .

جدته فكيهة ذات السن الذهبية التي كانت تفزعه في الظلام ، والوشم الثلاثي أسفل الفم بزرقته المقبضة التي كانت تجعله ينفر من قبلاتها .. تاهت في مولد سيدي الفرغل ولم يستدل عليها حتى كتابة هذه السطور .

عمته خديجة ذات السمنة المفرطة والتي لا ينسى فزعه من أن يفطس وهي ترضعه – أهذا ظل دومًا يكره اللبن أكثر مما يكره الكلاب العضاضة؟ – هذه العمة داهمها مرض غريب أقعدها عن الحركة والكلام، فلم يبق من دلائل بقائها على قيد الحياة إلا غمغمة تطلقها إذا سمعت الأذان، ثم ترجع فورًا إلى صمتها الأزلي .

حتى فتحية بنت عمه عبد السميع التي كفلته شهورًا حتى جاءها العَدَل، لم يمض على زواجها شهران، حتى دُفِنَت هي وزوجها إثر تناول وجبة فريك تشير الروايات إلى أن حنشًا غليظًا نفث فيها لعابه .

بعد هذه الحوادث المؤسفة .. بقي حسين وحده مع أبيه .. تطبخ لهم جمالات الخبازة ، وتغسل ثيابهم أيضًا .. ويشتري لهم متولي الكلاف حاجتهم من السوق ، لكن ليس هناك من يلاعبه حسين ، وليس هناك من يناكفه ، جمالات فتَّانة وتحكي لأبيه كل شيء .. لا يطيق طَلْعتها ، ومتولي ثقيل الدم كمدرسي العلوم .. ليس في الدنيا أسوأ من نفخته الكذابة .. خادم عند أبي ويتعنطز عليّ ؟!

ثم هذا الوجع الذي هلّ علينا .. فأفسد صوتنا ، وملأ جسدنا بالشعر، ونفانا لنرقص مذبذبين على سلم الأعراف ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، العيال لا تلعب معنا ، والكبار لا تعبأ بنا ، و- المصيبة الكبرى - جعلنا نتكهرب في حضرة أي مخلوق ينتهي اسمه بتاء مربوطة .. ومدرستنا ليست مشتركة .. ليس فيها تاءات مربوطة .. وهذه الكهرباء ملعونة .. من صعقته استعبدته فلا يزال يلهث بحثًا عن رعشتها .. وكل الأبواب موصدة .. لم يبق أمامنا إلا نسوان الغسيل .. لكن الفضائح تتوالى .. والضرب لا يرحم .. مع أن الشباب كلها تتفرج .. أنا وحدي الملعون ؟

* * *

" الملكية الخاصة مصونة .. ولا تنزع الملكية إلا للمنفعة العامة ومقابل تعويض وفقًا للقانون "

الدستور لا يكذب .. والحكومة لا تكذب .. لكن الناس لا تُصَدِّق ..

جاء منشور عممته الإدارات الزراعية على كل البلاد .. يمكننا اختصاره اختصارًا مقبولًا " من يشتبه في اختباء أي مجموعة إرهابية في أرضه المزروعة

قصبًا فسوف تتكفل الإدارة الزراعية المختصة بإزالتها لمساعدة قوات الأمن في تعقب المجرمين .. والدولة ملتزمة بتعويض من أتلفت عملية الإزالة محصوله تعويضًا عادلًا طبقًا للدستور والقانون " .

بذات الحذر والقلق وعدم التصديق الذي تلقى به الناس بيانات ساري عسكر بونابرته كبير الفرنسيس .. بذات الشك وعدم الارتياح والاستعداد للسخرية .. تلقوا هذا المنشور ..

تعويض " عادل " ؟! .. متى دفعت الحكومة مالًا لأحد ؟ إنا نعرفها تقبض وتحصِّل وتجبي .. أما الدفع فكلام جرائد .. وضحك على الذقون .

أولاد الرفاعي .. لهفت الحكومة أرضهم منذ عشرين عامًا لأجل بناء الكوبري الجديد الذي لم نكن بحاجة إليه - من منكم رأى كوبري في قرية؟ - وأقسم لهم المحافظ إن التعويض "جاي في السكة" .. والحاصل : لا الكوبري بنوه ولا التعويض دفعوه ..

بيت سالم الفخراني .. نطحه بلدوزر مجلس المدينة فطرحه أرضًا لتوسيع الطريق .. وتلقى سالم ألف وعد ووعد بـ "حل مشكلته" وإلى الآن لا يزال مقيمًا في خيام من بطاطين الجيش الرمادية بين أنقاض بيته التي لم ينقلها البلدوزر .. لأنهم قرروا عدم توسيع الطريق ..

أفتكرلك إيه يا بصلة ؟

لكن البصلة كانت صادقة هذه المرة ..

نعم كانت صادقة ..

اعتمادات جبارة غير مسبوقة .. تقرر أن يتم دفعها فورًا بأكثر من قيمة أي قيراط قصب تجري إزالته .. وليحمد الناس ربهم .. هذا أهون بكثير من نزع

الملكية الذي يحكي عنه الدستور .. على الناس إذن أن تطمئن وتبلغ الأمن عن كل ما تراه ..

لكن الناس لم تصدق ..

مهما جادلتهم بما جاء في الصحف ، أو بما أعلنه الوزير ، أو قلت إن فلانًا في بلد كذا .. قبض كذا ألف جنيه ، أو إن عِلانًا في نجع كيت دفعوا له حتى قبل أن يكسروا عودًا واحدًا .. فإنهم لا يسلِّمون .. بل يأتي السؤال الخطير الذي لن تستطيع الإجابة عنه : شفت الفلوس بعينيك ؟

وأنَّى لك ذلك وبلدنا لم يشهد سابقة واحدة لكسر القصب ؟ كل حملات الكسر جرت في نجوع بعيدة ، وكفور غريبة ، يراهم أهل بلدنا كذابين كالحكومة مِثْلًا بِمِثْل .. سَواءً بِسَواء ..

حتى في هذه البلاد .. لم يبلغ أحد الحكومة بنفسه .. بل شمت هي الخبر .. فشنَّت الغزو ..

الوحيد الذي صدَّق .. هو الحاج حلمي ..

* * *

آثر حسين السلامة .. فابتعد بقلب يمزقه الوجع عن جلسات الغسيل النيلي .. وقد كان إبليس متعاونًا ، فوفر له البديل فورًا .. وبكل كرم ، أهداه دستة مجلات يستحيل المرور بها من عتبة البيت ، سيرتبك .. ويفضحه إثمه .. جمالات ستخبر الحاج حلمي قبل أن يتذوق صفحة واحدة ، ومتولي سيجد سببًا حقيقيًّا لاحتقاره .. وربما ابتزازه .. أضعف الإيمان أنه سيحرقها في الفرن ليغيظه .. يحرق هذه الملائكة الشقراء التي تعرض كل شيء وبلا فضائح .

لا بد من مخبأ آمن يأوي إليه عند الحاجة .. وكر صغير لا تطوله عين الرقيب ولا تناله يد الفضول ، مأوى بعيد لا تعرفه جمالات ولا يمكنها الوصول إليه ، جيب هادئ معزول ليس بوسع متولي النفاذ إليه ..

* * *

صدَّق الحاج حلمي وقال : هذه ليلة القدر ..

إذا الحظ لم يأتك فاذهب أنت إليه ..

هذا الرجل الذي دمه مليء بـ" الحاجات " التي ليست في دماء باقي الناس .. يؤكد أن الناس الغبية فقط هي التي تتعلل بسوء الحظ .. أما الفالح .. الناصح .. الراضع لبن أمه .. فيأتيه الحظ صاغرًا يتمسح ..

إذا كان التعويض عن كل فدان هو رقم واحد لا يتغير بلا فرق بين القصب الأحمر التام النضج وذلك الأخضر الغض الذي لم يبدأ المشوار بعد .. إذا كان هذا صحيحًا ، فلماذا ننتظر هذه الشهور الطويلة وننفق على ريِّه وحراسته دم قلبنا ما دامت النتيجة واحدة ؟

الحكومة ستدفع ما في هذا شك .. المهم أن تتأكد أن أرضنا فيها بعض اللِّحى والبنادق ..

إذا قمت بالتبليغ بنفسي .. لعب الفأر في عب الحكومة ، فالقصب لا يزال قصيرًا لا يصلح لاختباء القامات الطويلة ..

أين علام ؟

جاء علام ..

– شفت كام واحد من العيال الإرهابيين في زرعة القصب البحرية بتاعتي يا واد يا علام ؟

- عيال ؟! .. إرهابيين ؟! .. عليَّ الحرام من ديني ما شفت حد ..

- انا باقول انك شفت يا علام .. تسعة في الزرعة البحرية وعشرين في الزرعة القبلية .. فاهم يا علام ؟

_ علي الطلاق ما شفت !

_ أما قليل رباية صحيح.. أنا اقول انك شفت.. وانت تقول علي الطلاق؟!

- لا مؤاخذة يا حاج .. بس كده هايكسروه ..

- هي أرضك ولا أرضي ؟ قصبك ولا قصبي ؟

* * *

تقول النكتة " س : كيف يختارون عساكر الأمن المركزي ؟

ج : بسيطة .. ينادون : من يعرف القراءة والكتابة ينتقل إلى يمين المعسكر .. ومن لا يعرف يذهب إلى اليسار ..

يذهب البعض إلى اليمين .. والبعض إلى اليسار .. من يبقى في المنتصف ينضم تلقائيًا للأمن المركزي " ا . هـ .

ظالمة هذه النكتة .. ولسانها طويل .. فضلًا عن أن الواقع يكذبها ، فبين فصائل الأمن المركزي التي أحاطت بزراعات الحاج حلمي بمجرد سريان إشاعة علام ، أخرج عدد لا يستهان به من العساكر مصاحف وأناجيل ، وانطلقوا في ابتهالات خاشعة .. اندفعت يس والواقعة وأبانا الذي في السماوات .. مسترحمة .. متوسلة .. راجية ألا تكون هذه نهايتهم .. داعية ألا تدهمهم رصاصات قيل إنها لا تخطئ هدفها .. بل قيل إن كثيرًا من فوارغ

هذه الرصاصات قد وجد محفورًا عليه اسم من انطلقت الرصاصة لتقتله .. حتى قناصة النازي لم يكونوا بهذه الدقة !!

جاءت المدرعات لتكتسح القصب وتجرفه .. جاءت غاضبة تهدر .. وحول الزراعات .. توزعت تشكيلات عساكر الأمن المركزي بالكلاشينكوف والخوذ والدنكات والدروع .. ومن كان منهم قادرًا على فك الخط .. كتب وصيته ودسها في جيب الصديري الذي يلبسه تحت الأفرول الميري الأسود المفصل في وِرَش مصلحة السجون ، أو حشرها بين كمر البنطلون والقايش الذي يستخدمه في ضرب زملائه في العنبر حين ينقلب الهزار جدًّا .

وقفت القوات كلها تنتظر فراغ حامل الميكروفون من توجيه النداء الأخير للمختبئين " الذين رآهم علام " حتى يستسلموا ويكفي الله المؤمنين القتال .. لكن النداء بقي صداه يتردد دون استجابة.. على مسمع ومرأى من العسكر ، والحاج حلمي ، وعلام ، وكل من أراد الشماتة في الحاج العبيط الذي خانه علام وفضحه وخرب بيته وأسلمه لمصير أولاد الرفاعي وسالم الفخراني ، ليجلس كالحمار ينتظر تعويضًا لن يأتي ..

رغم كل هذه الضجة الزاعقة لمحركات المدرعات والعربات المصفحة ولواري الأمن وصوت الميكروفون .. رغم كل هذه الضجة ، فإن حسينًا الذي غلبه النوم بين أعواد القصب بعد عصرية فريدة أنهكت أعصابه فيها وقائع السفاح الفوتوغرافي في مأواه السري الذي اهتدى إليه أخيرًا بعد بحث طويل عن أنسب المخابئ .. لم يستيقظ .. ولم يتحرك له جفن .. حتى حين اقتربت المدرعات منه بجسارة لتنفِّذ دعاء أبيه وتفرمه فرمًا .. ظل نائمًا .. لم ينتبه إليها .. ولم تنتبه إليه ..

الفهـــرس

الهجـرة 5

الوقــف 29

الضبع العجوز 51

شاطر ومشطور 65

الســيل 79

القصب الأخضر 89